روايات الهلال

أخبار عزبة المنيسى

يوسف القعيد

REWAYAT AL-HILAL
No. 435 — March 1985

HAMDAN.B
27/11/2009

الغلاف بريشة الفنانة
سميعة حسين

أخبار عزبة المنيسي

بقلم

يوسف القعيد

دار الهلال

مقــدمة

بقلم الاستاذة : الدكتورة سهير القلماوى

ما الذى حدث فى القرية المصرية بعد الثورة ؟ موضوع يلح على ضمير الشباب ويؤرقهم ويدفعهم الى تأمل قريتهم التى يحبونها والتى يحاولون أن يصلوا الى أسباب تخلفها برغم الآمال الكبيرة التى عقدت على اصلاحها وبرغم المحاولات الجادة التى بذلت حتى اليوم . لقد قضت الثورة على الاقطاع بقانون ولكن رواسب الاقطاع تحتاج الى اعوام ويطيل هذه الاعوام ما لا يزال يجثم على صدر القرية من فقر وجهل .

و « اخبار عزبة المنيسى » ليست المحاولة الاولى « لمحمد يوسف القعيد » ليعبر عن رؤيته لقريته ، فقد أصــدر منذ عدة سنوات روايته « الحداد » التى لفتت بأسلوبها وبموضوعها أنظار الكثيرين وأثارت بينهم نقاشا طويلا . ولا ترتبط الروايتان بأية رابطة الا فى اشارة بسيطة الى أن الحاج هبة الله المنيسى صاحب القرية حزن يوم عرف بموت الحاج منصور أبو الليل عمدة الضهرية وهو الشخصية المحورية فى رواية « الحداد » . ثم اشارة عابرة أخرى عندما يقارن صفوت فى رواية « أخبار عزبة المنيسى » نفسه بحامد ابن الحاج منصور أبو الليل فى رواية « الحداد » : فكلاهما شاب وكلاهما كان يراد له أن يكون هو محرك الاحداث أما حامد فقد تخاذل وابتعد وان يكن صفوت يراه أكثر منه وضوحا وأما صفوت فبالرغم من أنه جلب الشر على الجميع فان المؤلف يجعلنا نرثى له . « لقد أصبح يحس بسبب موقفه غصة فى حلقه . هوانا يتمدد تحت أسنانه . حزنا ينتشر فى صدره الخ .. لا يستطيع أن يواصل فى نهاية الامر حياته . يجرها خلفه جرا »

ولكن الذى يربط الروايتين فعلا أكثر من هاتين الاشارتين العابرتين وأكبر من مظهر أنهما لا ترتبطان . فلقد كتب محمد يوسف القعيد روايته بعد نكسة الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ وصدى الحدث التاريخي الضخم يدمغ الجو ويفرض نفسه ، دون أن يذكر ولو بالاشارة ، على تطور المواقف فى العملين . بل اننا نلمح أكثر من شبه

فى الاشخاص وفى الموضوع ففى « الحداد » الحادث المحورى هو مقتل الحاج منصور أبو الليل الذى تبدأ الرواية بعده .
وفى « أخبار عزبة المنيسى » الحادث المحورى هو مقتل صابرين . وفى « الحداد » يأخذ موضوع طلب الثأر الذى كانت عائشة ابنة الحاج منصور تلح عليه حجما غير عادى فى الرواية وفى أخبار عزبة المنيسى يأخذ غسل العرض بالدم حجما غير عادى أيضا والاخذ بالثار وغسل العرض كلاهما يرمز الى عالم قديم يريد المؤلف من خلال ما يشيع فينا بشكل غير مباشر من احساسات أن يتخلص منه أو يغيره ولكنه ، وهذا أيضا بايحاء الوصف ، يبدو مستحيلا فى ظروف القرية المصرية الحالية .

أما « تقنية » التناول فتمثل تشابها أقوى بين الروايتين ففى « الحداد » نرى من خلال محاور اربعة هم عائشة وحسن الاعرج وزهران وحامد وقع الحادث فى نفوسهم وأثره فيما يعتزمون من تحرك . وفى « أخبار عزبة المنيسى » نرى بين المشهد الافتتاحى والمشهد الختامى مواقف اربعة أيضا من خلالها نعرف حجم تأثير مقتل صابرين فى أهل العزبة وما ترك موتها وسمومه فى نفوسهم من انفعال أو رد فعل . صحيح أن الاسلوب الداخلى للعرض يختلف ، ففى « الحداد » لما كانت المحاور أشخاصا نجد التحليل النفسى والارتداد الى الذات ثم العودة الى الواقع الخارجى فى خطوط جد متشابكة هو أسلوب عرض الموقف بينما فى عزبة المنيسى ، لان المحاور أحداث ، فان السرد يحتل محل التأمل الباطنى ليوضح الموقف . ولكن الاسلوبين يختلطان ويتشابكان لميل المؤلف الملحوظ الى أن يجعل بين الواقع والذات عند ابطاله خيوطا كثيرة بالغة التعقيد . ويكفى أن نتأمل كمية الذى عرضه علينا فى روايته عزبة المنيسى من تأمل عبد الستار أبو صابرين فى عقله الباطن واختلاط أحاسيسه بالحاضر مع أحاسيسه بالماضى فى قدرة عجيبة لنعرف الى أى حد يتعمد المؤلف أن يستفيد بقدرته الفائقة على سبر الغور واستبطان الذات والبحث عن أخفى أحاسيسها الغامضة .

وفى هذه الرواية ما يزال محمد يوسف القعيد يجد فى الطبيعة معينا لا ينضب من القدرة على الايحاء وايجاد الجو حول الموقف وان يكن فى « الحداد » قد خلط خلطا ممتازا بين الاحاسيس والطبيعة فانه فى عزبة المنيسى يتفوق اكثر واكثر فى هذا الاتجاه .

ان الطبيعة وحدها هى التى تمد أهل القرية بالامل انها هى باشراقة شمسها وخصوبة محصولها بل هى أيضا بخصوبة ابنـــائها وقدرتهم بواسطة سلامة غريزتهم على أن يشعروا بلحظـــات كبرياء نادرة وهم يمارسون حياتهم الجنسية التى تستطيع أن ترقرق الامل تحت هـذه القشرة السميكة من البلادة والرتابة والبؤس والضياع .

ويصور المؤلف القرية كما هى من خلال لمحات قوية تلتقط فى مقدرة قطع الصورة وأجزاءها اللازمة لتوحى فى خفـة ودقـة بأعمق الاحاسيس . ان جو القرية قد رسم بألوان قوس قزح مختلفة ولكنها متقاربة لتخرج لنا ألوان الطيف الناعمة صورة قوية فى مجموعها تلفت النظر بشكل قوى أخاذ . بيت شيخ الغفر أبو صابرين ، الساقية ، مجالس السمر بالليل ، عرسهم ومأتمهم ، فسق ابن الحاج المنيسى ، صفوت ، كل هذا يرسم فى رفق وحنان . حتى فسق صفوت مبرر نفسيا ممهد له ببراعة . فشل مستمر ، انفصام بينه وبين أهله وارضه، تجربة حب مؤسية فاشلة فى الاسكندرية فجعته ، ويأتى اعتداؤه على صابرين انتقاما من كل هذا . وصابرين نفسها كانت بدورها طبيعية مبررة السقطة . كتبوا كتابها على « أبو الغيط » مريض ليس من طبقتها يكبرها كثيرا لا تحبه ولا تكرهه وصفوت ابن الحاج فيه طراوة المدينة وجاذبية الطبقة الاعلى فماذا تصنع . لم تكن تحلم بزواج ولم تحب ولكنها سقطت تلقائيا سقوطا مبررا من كل وجه طبيعيا الى أقصى حد دون أية مواقف درامية أو رومانسية . حتى الزناتى أخوها عنـدما ينفذ عملية قتلها لا يتخذ قرارا ولا يأتى عملا وفق نمطه . ان على القرية كلها قدرا مرسوما يسيرها فى رتابة لزجة الى حيث يجب الا تسير ولكنها ما زالت مشدودة الى الماضى .

وصلة القرية بالمدينة باهتة . الحاج هو كل شىء يستأذنونه حتى فى الزواج . لا يعرفون حكومة ولا اتحادا اشتراكيا ولا لجنة عشرين الا ان يوم الانتخاب يكون يوم عطلة .

ويصف المؤلف خروجهم فى هذا اليوم وصفا بارعا من غير شك . يتزينون بأحسن ما عندهم ليذهبوا الى أمر لا يعنيهم فى شىء . ومن حين الى حين يأتى صوت الاذاعـة وسط الوصف وأثنـاء التأمل فى الذات ليقول أخطر الاخبار ولكن القرية فى واد آخر . وهنا أسأل سؤالا ألم يكن فيها جندى واحد من جنودنا الذين ذهبوا الى سيناء

يوم ٥ يونيو . اليس هذا أمرا عجيبا نوعا ما ؟ على كل حال هكذا يأتى ذكر الاذاعة . « مر على دكان أبو الفتوح ... كان هناك جمع من الرجال ، الراديو يجمعهم فى مثل هذا الوقت من كل ليلة :

« ولقد تحركت قو تنا المسلحة الى حدودنا فى سيناء وذلك لدفع العدو الى توزيع قواته على الجبهة السورية والجبهة المصرية وذلك ان أمن العالم العربى كله لا يتجزأ هنا القاهرة .

لم يدفع الثمن أخرج أبو الفتوح دفترا ملطخا بالزيت والسمن والعسل الاسود وقيد فيه ثمن الباكو ودفتر « البغرة » فى أول الشهر يدفع ما عليه الخ .. » .

وأحيانا يقول المؤلف بشكل مباشر . « بيد ان هناك صوتا متميزا تألفه كل الآذان ينبعث من سراية الحاج هبة الله المنيسى . كان هذا هو الموجز واليكم انباءنا بالتفصيل من القاهرة . كلمات كالمتاهات الغريبة ، أسماء كالطلاسم والرموز أحداث لا يدرون عنها اى شىء » .

وكذلك تمر على القرية طائرة فى نصف الليل لا يدرى أحد عنها شيئا . وعبد الستار يعرف الوقت من رؤيته لها وهى تعبر سماء القرية لا غير . « والحياة تمضى بطيئة بطيئة قاسية تغتال الامانى وتحفظ الاحلام العذاب وتفرش زوايا النفوس برغبات مبهمة غامضة مثل غبشة المساء وتزرع كل الاركان بحزن عقيم تماما مثل دكر النخل . وصابرين . البقية فى حياتك . تحت التراب . حياتك الباقية . فى أعمق الثرى بعيدة نائية مدفونة فى حبة القلب » .

وأسلوب المؤلف فى ادخال الكلمات المعروفة فى الحديث العادى كما هي وسط السرد أو التأمل اسلوب جميل يعطى للوصف نكهة وحيوية بالنقلة من السرد الى الحوار ثم الى السرد دون الشكل المألوف لذلك . وعندما يصف أنهم يذهبون للصلاة مثلا يدخل كلمات التحيات وسط الحركة دون توقف أو اعداد وانما الكلمات نفسها هى التى توهمنا بالحوار فالحوار أو النطق بالكلمات وسط السردمختلطا اختلاطا تاما سمة من سمات أسلوب محمد يوسف العقيد .

والاشارة الى بداوة المعتقدات الشعبية فى هذه البيئة الحلوة رغم تخلفها تأتى فى تلقائية عفوية بحيث يصبح لها مذاق خاص . ان المصائب التى تنزل بالقرية كلها سببها ان ليس بالقرية مسجد ولا مقام لولى . الفقير عبد الستار يزين بيته للعرس بصورة « الادهم » هذا الذى

أخذ من الاغنيـــاء وأعطى الفقراء « حكموا عليه ينحبس وحـــده فى زنزانة : قـــام انفرد وانثنى ما همه زنزانة : وقع حيطـانها وهرب الخ .. » صورة من صور البطولات النادرة أيام كان الابطال يتزوجون مائة امرأة وينطحون السماء برأسهم ويحطمون الارض بأقدامهم . هذا البطل يأتى نقاش من المركز « دميسنا » ليرسم صورة له على جدار بيت العرس عرس عبد الستار الذى حلم بالبطولة ولم يســتطعها ولما استطاعها ابنه استطاعها فى غيبوبة حزينة .

ولا يفوت المؤلف أن يشعرنا بلحظات اليقظة من هذا الاستغراق فى نشوة الحزن على بطولات الماضى اذ تتداعى الافكار « يواصلون حكاياهم الحزينة . ست الحسن والجمال كانت تجلس فى القصر العالى فى انتظار الشاطر حسن . فجأة يسأل أحدهم : هوه فاضل أد ايه على دور المية ما ييجى » وكأنما انتظار ست الحسن فكرهم بانتظارهم هم ..

وقدر المؤلف على رسم خط « زجزاجى » متعرج قدرة فائقة فاذا نظرنا الى تتابع الاحداث فى الفصل الاول مثلا نجد : ٢٣ مايو ســنة ١٩٦٧ فان الاحداث هى اشارة خاصة بسبب الوفاة ، التحقيق ، عمل عبد الستار وحراسته الليلية ، منزل عبد الستار وحياته بعد مـوت صابرين ، خروجه للحراسة وسط اذاعات تحرك الجيش من بعيد ، مناجاته لصابرين ، ذكريات طفولتها ومولدها مختلطة بذكـريات يوم دفنها وجنازتها ، حرس كل شىء ولم يستطع أن يحـرس صابرين ، يأتيه رسول العمدة ، يطلبه للتحقيق ، يعود الى بيته لاعلامهم ، ميلاد صابرين ، غناؤها للفلاحين فى الغيط للحب للامل للحزن الدفين لعتاب الزمان على هجر الحبيب ، ثم الوصول الى مركز التحقيق ، ســؤال ، واستغراق فى ذاته ، أحلام ورؤى ، ورد مقتضب . وهكـــذا نجد الحاضر والماضى بل المستقبل كله مختلطا فى السرد لا زمان واضـــح ولكن المكان وحده هو الواضـــح . وكأنما هو اقتـــراب من مذهب « الشيئية » فى الرواية حيث تبهت الاحداث والاشـــخاص ويختلط الزمان لتبرز الاشياء بزمانها الدائم اللانهائى .

وبموت صابرين تتراءى لاهل القرية ولابيها فى صور شتى تصبح شبه أسطورة . انها تعيد صنع حياتها وتشرب أحزان العالم .

وفى المشهد الختامى حيث يقوم المؤلف على طريقة القصص الشعبى

بتصفية حساب كل شخصية بنفس الطريقة التى بدأ بها فى الافتتاح حيث يقدم لنا القرية والاشخاص بأسلوب اذاعى تقريرى اخبارى نراه يعقد فصلا أخيرا فى هذا المشهد الختامى يبدأ بقوله :

« قد تشرق مئات الشموس ، تسطع الاف الاقمار ، يتلون النهار بكل الالوان ، تولد الاصباح الندية على صفحة الليل ، تثقب الظلام ، تخدش لصمت ، يذوب النهار الاشهب الحلو فى الليل الاسود ، يغطى الليل البيوت والحارات ، ولكن كل هذا لن يفعل للعزبة ولاهل العزبة أى شىء • فمهما حدث للعزبة عزبة الحاج هبة الله المنيسى « فسيظل، ولسنوات طوال قادمة ، معجزة هذه العزبة هى أن تخلق فى أعماق القلوب ذلك الجيل المعتم الذى تسيل منه الاحلام كأنها مياه الينابيع »

ان ترديده « طيب وايه العمل » هذا السؤال الذى يطرح فى كل مكان اجتمع فيه اثنان ليدل على القلق والحيرة والخوف أن تظل حال القرية كما هى • يقول المؤلف « الناس هنا مختلفون بطبيعة الحال غير أن الموضوع الذى كان يشغلهم كان موضوعا واحدا • لم يكن قتل صابرين • كان موضوعا آخر : الارض ، البيوت ، حياة كل فرد منهم، وجوده ، زوجته ، أولاده، تعاملهم مع بعضهم البعض، علاقاتهم بالباشكاتب موقفهم من الحاج هبة الله المنيسى والعزبة » ولكنه لا يفقد الامل فكل منهم يهمس الى نفسه « قد يكون الغد الصباح الباكر أفضل من اليوم من غير شك » •

وليست هذه الكلمات التى يختم بها الرواية من باب حسن الختام المفتعل كلا فالمؤلف مؤمن طوال الرواية بأن هنـاك فى القرية شىء غامض ولكنه مؤكد ثابت هو شعور الامل الذى يجتاح النفوس كل صباح •

« تأتى الى عبد الستار ، سواء أكان فى أول الشهر أم فى منتصفه أصوات كل صباح لتؤكد فى خياشيمه رائحة الشروق ، معنى الميلاد الجديد ، القدرة على احتواء شىء بكر ، يبلغ أقصى درجات النشوة . وعلى الرغم من كل مايعانيه عبد الستار فى كل ليلة على الرغم من لحظات الاحتضار البطىء ، الحزن الذى بلا حدود • ظلام كل ليلة . فان عبد الستار بمجرد أن تصافح عيناه نقاط الضوء الفضية يتكسر فى أذنيه صياح الديكة ، ثغاء الحيوان ، أصوات الابواب تفتح ببطء ،صوت تساقط قطرات المياه على الوجوه فى المصلى القريب قول من يتوضأون لا اله الا الله اللهم اقبل صلاتنا ، يذهب الى أقرب مدار

سابقة الخ ·· ان فى بطن القرية جنينا باهرا سيخرج الى الحيـــاة يوما ليغلب الخير على الشر · يقول المؤلف هذا المعنى بأشكال تختلف فيقرب الى القاص الشعبى من حيث لا يدرى بشكل ظاهر · كل الامل فى الغد ولكن كيف ومتى وبماذا · ليس هذا من شأن مؤلف رواية ، حسبه أنه ينقل الصورة صورة الاشياء فى اتقان مفعم بالايحـاء ملىء بطاقة تتفجر فينا الاحساس بالحياة فى القرية · انه ابن القرية عايشها أحس بها وبحزنها · وجد حوادثها مكررة فكرر فى روايته حوادثهـــا لا شيء يهز القرية الا جريمة قتل هكذا قرر توفيق الحكيم فى « يوميات نائب فى الارياف » وهكذا يكرر محمد يوسف القعيد فى الحداد وفى عزبة الحاج المنيسى ·

واذا كانت قرية المنيسى تقرب فى الشبه من قرية نائب الارياف فان الحكيم لم يتعاطف مع قريته ولم يكن منها ولكن محمـــد يوســـف القعيد غارق فى قريته هو قطعة منها وهو فى كل ذرة تراب فيها ولكنه مع ذلك لا يملك لها الا الامل فى الغد · وليس الامل أملا روائيا ولكنه أمل فلاح اصيل يحس دبيب الحياة فى الطبيعة من حوله فيتيقن أن الحياة دائمة مستمرة متجددة لن يقهرها الحزن ولن توهنها الرتابة والقتامة · فالفلاحون يحلمون ويشتاقون ويتطلعون ولكنهم ليســـوا ثائرين هكذا هم ولم يفتعل لهم مواقف وبطـــولات لان محمد يوسف القعيد أصدق من هذا فى علاقته بقريته ·

كم كنت أحب أن أقف بأسلوب القعيد وخاصة لغته وطريقة مزجه المألوف بالمبتكر والعامى بالرفيع · ولكن هذا الاسلوب «النسيفسائى» الجميل ينم عن عناية فائقة وصنعة دقيقة استطاع ببراعة أن يخفيهـــا عنا فاذا هو يبدو وكأنه سهل أو كأنه نتف من هنا ومن هناك · كيفما اتفق بينما هو فى الحقيقة بناء هندسى دقيق الصنع قد أجهد صاحبه·

كذلك كنت أحب أن أقف بعيوب فى الرواية ولكنى أمام شـــاب تناول فنه فى جدية ودأب نادرين وواصل سيره الشاق فى اخلاص وأمانة قلما صادفتها فى شباب كتاب هذه الايام فليكن مجال العيـوب مكانا آخر غير هذه المقدمة التى ما أردت بها دراسة ولا تقديما وانما حسبى منها أن أشارك فى تقديم كاتب فى أدبنا الحـــديث لقـــرائه الذين يحبونه ويحبـــون قريته بل والذين سيعملون شـــيئا لقريته ولآلاف القرى الرابضة فى ريف مصرنا الحبيبة تنتظر ثورتها الحقة ·

د · سهير القلماوى

مشهد افتتاحى

هنا عزبة الحاج هبة الله المنيسى . يحدها من الغرب ، المكان الذى تسقط فيه الشمس كل مساء ، فى لحظة الفسق ، قرية دميسنا ، والتى يسميها كل الناس بالبلد . ويحدها من ناحية الشرق ، عزبة الموردة ، التى تنام فى حضن جسر البحر العالى ، من خلف جسر البحر ، تخرج الشمس من جوف الظلام ، كل صباح ، بين الجسر العالى والمكان الذى تخرج من جوفه الشمس ، ينام البحر ، وهو فى الحقيقة فرع رشيد . يحدها من الناحية القبلية ، حيث يأتى الاتوبيس قادما من كفر الزيات ، كل صباح ، قرية السوالم البحرى . ويحدها من الناحية البحرية ، حيث يسير الاتوبيس فى آخر النهار ، مرسلا صفيره الحزين ، ذاهبا الى دمنهور ، قريتى كفر عوانه ونكلا العنب . تبدو العزبة ، فى وسط الحقول ، كومة طينية جاثية على الارض ، كثيفة مشوشة ، بضعة مبانى طليت بلون جيرى ابيض ، تلك هى برج الحمام ، سراية الحاج هبة الله المنيسى ، مكتب الباشكاتب . وهناك ، بشكل غير منتظم ، نخلة او جميزة او شجرة توت ، تشرف على العزبة ، موزعة خلالها ، لا يبدو للناظر الا اعاليها فقط تخفى رمادية الحياة فى العزبة . هنا ـ سادتى ـ عزبة الحاج هبة الله عبد الجبار المنيسى .

١ ـ عن الحاج المنيسى الكبير :

لا يذكر الناس هنا متى حج اول مرة ، قيل انه ذهب الى بلاد الحجاز اكثر من مرة بالطائرة ، ولكن الحجة الاولى فقط احتفل بها ، ذهابه وعودته . سجل حجه على جدران العزبة ، بيضت اجزاء منها ، ورسمت صورا ساذجة ، لرجال ، جمال ، طائرات ، بواخر ، بيت الله ، هلال شهر رمضان . ومن قبل كل هذا وبعده ، كتبوا : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » . ومن يومها والكل هنا ينادونه بـ « بابا الحاج » .
الارض هنا ارضه . كل فرد يزرع قطعة من الارض بالنصف ،

تكاليف الزراعة مناصفة بين الحاج والزارع ، والعائد من المحصول بحسب مناصفة ، حتى المواشى تشترى بالنصف ، « بيد ان البيوت ، الحارات ، عيدان الحطب فوق السطوح ، ابراج الحمام ، دكان البقالة الوحيد ، المصلى ، الدوار ، كلها ، ملك الحاج هبة الله المنيسى » . لا يتعاملون مع الجمعية التعاونية ، هو وحده الذى يتعامل معهـا ؛ يحضر التقاوى ، الكيماوى ، المبيدات ، يبيع المحصول ، يحاسبهم ، يأخذون ما لهم ، يدفعون ما عليهم . فى أيام الفراغ القـاتلة ، وهى كثيرة على مدار العام ، يعملون عند الحاج هبة الله .

ـ جحا اولى بلحم طوره .

لا يذهبون الى عضو مجلس الامة ، أو رئيس القرية لقضاء حاجة لهم ، فالحاج كفيل بكل شيء ، ويقولون أن له معارف فى المركز ، والمحافظة والمنطقة التعليمية ومديرية الامن . فى العزبة يتم كل شيء بعلمه ، الزيجات .

ـ احنا بنستسمحك يابا الحاج ، ويا بخت من وفق راسين فى الحلال . قصص الحب اليتيمة بين عيدان الذرة ، وحوادث القتـل والطلاق . حتى الاحزان . اجل ، كل شيء يتم بعلم الحاج هبة الله .

وعندما يسافر « وذلك نادرا ما يحدث » فان كل الامور تعطـل لحين عودته ، ولابد من عودته قبل هبوط المساء ، فهو لايقضى الليل بعيدا عن العزبة .

لم يحدث فى تاريخ العزبة كلها ، أن سمع احد عما يحـدث داخل العزبة ، لم يذهب احد منهم الى البلد ، الى العمدة ، شيخ البلد ، شيخ الغفر ، لا شاكيا ولا مشكوا فى حقه ولا شاهـدا ؛ خلافاتهم بسبب الارض ، مواعيد الرى ، المياه ، بل خلافاتهم مع نسائهم ، يذهبون بها الى الحاج هبة لله . الرجال فى العزبة : وفى العزب المجاورة ، يسلمون عليه ، سلام الرجل للرجل ، أما النساء ، عندما تشاهدنه ، تخلع المرأة الشبشب الموشى بالورد ، تلف يدها فى الطرحة ، تحتوى كفه الضخم بين يديها الطريتين ، تسلم عليه ، تقبل يديه ، بيد انه يسحبها :

ـ استغفر الله العظيم يابنتى .

لا يذكرون انه رشح نفسـه فى اية انتخابات ، ولكنهم يسمعون ان والده ، الحاج المنيسى الكبير ، كان يرشح نفســه فى انتخـابات مجلس الامة . يذكرون هنا ، انه عندما قتل الحاج منصور ابو الليل ،

صديقه الحميم ، فى قرية الضهرية ، حزن عليه حزنا عظيما ، صمت لحظة علمه ، صمتا قد من صمت القبور .

ــ انا لله وانا اليه راجعون .

جمع شمل الذكريات القديمة ، قضى أياما وليالى حدادا على مقتله ، واجه فيها ذلك الشحوب الذى يصيب الاشياء قبل الموت : ولكن أحدا من أهل العزبة لا يذكر انه رأى الحاج منصور أبو الليل يحضر الى العزبة لزيارته .

٢ ــ باشكاتب العزبة :

فى عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، مائة وتسعون فدانا من أخصب الاراضى فى هذه الناحية « يملكها هو واخوه الذى يعمل فى منصب كبير بالقاهرة ، يقولون مرة أنه وكيل وزارة ، ومرة مدير عام ، أو مأمور ، ولكنهم فى كل الاحوال يجمعون على خطورة منصبه . وكذلك أختاه ، وهما متزوجتان فى بلاد بعيدة ، ومن قوم أغنياء » .

والعزبة ، عادة ، مرتبطة بالملكية الكبرى ، وهى ، ضيعة خاصة تؤوى العمال الضروريين لاستغلالها ، ونظام العزب لا يرجع الى قرن مضى ، فقد نظم فى سنة ١٩١٣ ، ويوجد اليوم حوالى خمسة عشر الف عزبة ، وأهمية كل واحدة منها ، وتعميرها يرتبط باتساعها ، ولقد صار عدد من هذه العزب قرى حقيقية ، ولكن أكثرها ، من الناحية الادارية ، يتعلق بالقرى التى انفصلت عنها .

واذا كان مالك العزبة يشتغل بالزراعة المباشرة ، كان الفلاحون اجراء بالمياومة ، والا فهم شركاء أو مستأجرون . وفى جميع هذه الحالات فهم ينتسبون ، بشكل أو بآخر ، الى الارض ، وهم يظلون فيها رغم تبدل الملاك ، فتجدهم فى أكثر الليالى يحكون ، يحددون السنوات بالملاك الذين تعاقبوا على العزبة ، بل يحددون الاحداث الكبرى ، بما كان يحدث فى العزبة .

فى عزبة الحاج هبة الله المنيسى سرايه ، رمادية اللون « طليت باللون الابيض فيما بعد » ، تمدها بالمياه المعين طلمبة يديرها أحد الانفار حتى ترتفع المياه الى الصهريج العالى . فى العزبة تنده ، مكتب ، تليفون « رقمه ١٨ نكلا العنب » ، وأربعة مصارف ، وترعة

[illegible] قى ، وثلاثة عشر حمارا وركوبتان احداهما حمارة ولود [illegible] ان ، احدهم طلوقه لكل ابقار الناحية لوجه الله تعالى ، [illegible] ث ، وعشرة نوارج ، وسبعة محاريث ، وقصابيتان واربعة [illegible] واربع حارات ودكان ، وكوبرى له درابزين من الحديد [illegible] الاطراف ، قديم . فى العزبة مصلى وشيخ يؤم المصلين ، [illegible] ية ، وفوق كل هذا عشرة من الرجال الاقوياء وعائلاتهم ومقاول [illegible] .

يملك الحاج هبة الله المنيسى حب الكثيرين ، اعجابهم ، خوفهم [illegible] ، يحبطونه بهالة من التقدير ، تقدير ناتج بالضرورة مما يسمعون عنه ، واكثره من الشائعات ، تلك التى تثقل حكاياهم ، حكايا المحرومين فى النصف الاول من الليل :

ــ ياعم داتلاقيه مخاوى جنيه .

فى العزبة ، سائق لوابور الحرث ، يسمى الاسطى ، يرتدى عفريتة ، دائما ملطخة ببقع الزيت ، وطاقية وحذاء تاهت معالمه ، وضاع لونه الاصلى من كثرة الاستعمال . فى العزبة ، ناظر للزراعة وخولى للأنفار ، وكلاف يقوم بعلف المواشى فى الدوار ، وباشكاتب ، ونحال يرعى المنحل ، وجناينى ، يعمل فى الحديقة الكبيرة الواقعة فى آخر زمام العزبة من الناحية القبلية ، ويتمتع وحده ، دون كل اهل العزبة ، باكل المانجو والجوافة والبرتقال .

٣ ــ اهالى العزبة :

والعزبة ، عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، تقع فى زمام قرية دميسنا . لكنها مستقلة عنها فى كل شىء ، فلها دكان بقالتها « الذى يحضر بضاعته من ايتاى البارود راسا » ، ومسجدها ، وغفيرها . « صحيح انه غفير غير نظامى ، ولا يتبع العمدة ولا شيخ الغفر ، ولا يذهب الى النقطة الثابتة ، فى نكلا العنب ، ولا تمر عليه الدورية كل ليلة ، ولكنه يحمل بندقية يعلقها فى كتفيه ، ويحمل معه دائما عشر طلقات نارية ، ولا يرتدى طربوشا يحمل رقمه على رقعة لامعة من النحاس الاصفر » . اجل ، لا يتبعون دميسنا فى شىء ، العمدة لا سلطان له عليهم ، عندما ترد ورقة من دوار العمدة ، مكتوبة بخط ردىء بقلم كوبيا ، ومطبقة بعناية شديدة . باستدعاء احد الانفار

الى البلد « وهذا نادرا مايحدث » ، فما على النفر الا الذهاب الى الحاج هبة الله المنيسى ، وهو يتولى كل شيء . لا يعرفون عن الاتحاد الاشتراكى ، لجنة العشرين ، الا أن يوم انتخابهم يتحول الى عطلة ، اجازة . يوم لا يذهبون فيه الى الغيطان الواسعة . تظل المواشى فى الزرايب ، الغيطان ، فى هذا اليوم ، خالية حتى من العواطف . فى الصباح الباكر ، وتراب الارض مبلل بقطرات الندى البـاردة ، والبخار الابيض يخرج من الافواه مع الكلمات ، يخرجـون ، كل منهم يلبس الجزمة أم أستك ، تحتها شراب له خطوط فاقعة اللـون ، يرتدون ملابس نظيفة ، خاصة ، لا يذهبون بها للعمل فى الحقول . لا يشترونها بانفسهم ، كل منهم تشترى له زوجته هذه الاشياء من سوق يوم السبت ، من نكلا العنب . يخرج ، فى يده عصا خيزران عوجاء فى أسفلها صامولة من الحديد فى منطقة انثنائهـا جلد ذيل آخـر حيـوان ذبح فى آخر موسم . فى هـذا الصـباح ، ملابسهم نظيفة ، طبقت أياما وليالى تحت المخـدة ، يذهبون الى دميسـنا ، بعضهم يمشى على قدميه ، والآخر يركب ركوبة ، والركوبة ارقى قليلا من الحمار الذى يعمل فى الحقل يوميا ، ولا ترى الا وعليها برذعه نظيفة ، فى دميسـنا يتركها عند أحد أقاربه ، ويذهب الى الانتخاب ، بعد ذلك يتسكع فى شوارع البلدة . « انتخبـونى ، تجدونى أخدمكم بعيونى » . يمر على البقال . الشكك ممنوع والزعل مرفوع والرزق على الله مضمون . يذهب الى الجزار ، الجزماتى . يزور الموتى ، هذا قبر المرحوم ، يقرأ الفاتحة ، تهب على نفسـه رياح الحزن الدافئة ، الـكآبة المبتورة الوجه ، توفى الى رحمة الله تعالى ، فى ، الموافق ، سنة ، تمتلىء العيون بالدموع ، الصـدور بالأسى ، عندئذ يختلط بالاحزان أسى دفين ، وقبل كل هذا وبعده ، يدلون باصواتهم فى الانتخابات . يحدث هذا كثيرا ، فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى ، الجمعية التعاونية ، الاستفتاء ، مجلس الامة ، بيد أن علاقتهم بكل هذه التنظيمات تنقطع فى اليوم التالى مباشرة ، تتوه مع حبات العرق فى لحظة الظهيرة .

فى عزبة الحـاج هبة الله المنيسى ــ سـادتى ــ احزان كثيرة . عواطف مبهمة ، رغبات غامضة مثل غبشة المساء ، وسرور تأتى به المصادفات النادرة الحدوث . فى هذه العزبة ، أفراد ، فلاحـون . عمال ، تمليه ، يعملون فى الحقول ، يرتدى الواحد منهم جلابية من

الزفير ، باهتة الالوان ، بمجرد ذهابه الى الحقل ، وتحت الشجرة المزروعة على راس الحقل ، عند الساقية ، يخلع مداسه ، جلبابه ، الصديرى ، ويبقى بقميص من البفتة ، وسروال طويل ، يربطه حول وسطه بتكة من الصوف الابيض ، يجمع ملابسه ، يلفها ، يكومها تحت الشجرة ، يضع فوقها طوبة كبيرة حتى لا تطيرها الرياح ساعة العصارى .

فى لحظة الفسق ، والهواء طرى ، والظلال باهتة ، يغسل نفسه ، يتوضأ ، يصلى ، التحيات المباركات لله . يرتدى ملابسه . تكون الصلاة عادة على مساحة من النجيل الاخضر . افراد هذه العزبة ، يعيشون بخير قليل ، نادر ، وبآمال عراض .

سائق وابور الحرث ، الاسطى عبده ، يعمل فى أشياء أخرى ، يدير ماكينة المياه ، يصلح السواقى ، المحاريث ، حتى وابور الجاز . فى العزبة ، حلاق ، يقولون عنه مزين ، سى عبده ، أو الاسطى عبده . كما ينادونه ، لا يقوم بالحلاقة فحسب ، ولكنه يصف العلاج للمرضى ، يداوى الجراح ، يحمل حقيبة كالحة اللون ، عندما يصادف اى فرد ، وكل أفراد العزبة زبائن عنده ، يجلسه فى أى مكان ، على مدار الساقية ، بين الحقول ، فى مساحة ظل صغيرة لحظة الظهيرة ، فى قاع حارة . يحلق له ، يروى له كل ما يسمعه ، يدلى برايه فى مشاكل الساعة ، وقضايا العصر ، وفى تمثيلية الساعة خمسة ونص ، والتى تذاع بعد نشرة الاخبار مباشرة . يذهب الى كفر الزيات كثيرا ، كى يسن العدة . ملابسه نظيفة بصفة دائمة ، يرتدى بالطو ابيض ناصع البياض فى كل الاحوال ، بيد انه فلاح ايضا ، يستأجر ارضا من الحاج هبة الله المنيسى ، يزرعها أولاده وزوجته . لا يحلق لاهل العزبة بالنقود ، ولكن بالمسنيه ، وهى كمية من الذرة والقمح ، كل فى أوانه ، ما أن تفشر الذرة ، أو يذرى القمح ، حتى يهل عليهم ، يقف على بعد واضح ، معه ابنه وحماره : يقول بصوت مسموع ، ومن خلال بسمة بالغة الصفاء :

– كل سنة وانتو طيبين ياجماعة .

ومعنى هذا ، انه يطلب المسانية ، ويحضر أيضا ، فى مثل هذه الظروف ، خادم المصلى ، والمنادى ، حتى عبد الستار الغفير ، وأبو الفتوح البقال ، وامام المسجد ، الشيخ عبد الفتاح ، كلهم مثل سى عبده ، يستاجرون أرضا ، يزرعها أولادهم ، تماما ، مثل كل الفلاحين .

٤ ـ امام المسجد :

لا ينقص عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، سوى أن يكون فيهـــا مقابر للموتى ، فعندما يموت أحدهم ، يبكون عليه فى العزبة ، طوال النهار ، وفى لحظة تشييع الجنازة يسيرون ببطء ، فى الطريق الى البلد ، بمجرد أن يسرعوا قليلا ، ويتأخر حاملو النعش ، فان أمام المصلى ، الشيخ عبد الفتاح ، ترتفع يداه ، تصفق : وحدوه ، يتوقف الجميع ، تمتلىء المسافات الخالية بين الرجال بالناس . لا اله الا الله.

يحزن أهل العزبة أيضا ، ان عزبتهم خالية من شيخ من أوليـاء الله له مقام كبير ، يصلون فيه على الاموات ، يقدمون له النذور ، يوقدون فى مقامه الشموع ليلة الجمعة ، وفى الايام المفترجة ، يقرأون فى ردهاته المفروشة بالظلام دلائل الخيرات ، ويصلون على النبى . طالبوا الحاج هبة الله ببناء مسجد كبير ، كانوا قد جمعوا النقود ، واستعدوا للقيام بكل شىء بأنفسهم ، بيد أن الحاج هبةالله، نظر الى نقودهم ، والحماسة التى فى العيون ، وكانت الشمس تميل ناحية الغروب ، مصمصت الشفاه ، تفرقوا . قال الحاج هبة الله :

ـ كفاية المصلى يا أولاد .

من يومها ، وكلمـا حدث فى العـزبة شىء ، حرق زرع ، تقليع قطن ، ذبح جاموسة ، موت احدهم ، جفاف الترعة ، فيضان زائد عن الحد من النيل . كل هذا فى اعتقادهم له سبب واحد ، عـدم اقامة المسجد الكبير ، المقام العالى ، ولى الله صاحب البركات .

٥ ـ اهالى العزبة ((بقية)) :

كل شىء يسير فى هذه العزبة ، كما هو مرسوم له . يأتى الليل ، يعقبه النهار ، يتحول نور النهار الى لون رمادى معتم ، فى ظلمة الليل ، حيث تصبح خيانة القمر حزنهم الوحيد ، تثقب ذرات الضوء كتل الظلام ، تخدش صمته العميق ، أصوات الصباح ، كل صباح ، شقشقة العصافير ، صياح الديكة ، ثغاء الحيوان ، وشيش الشجر .

فى الصباح الباكر ، يذهبون الى الحقول ، يعودون فى لحظـة الغسق ، وغبشة المساء تظلل الاشياء ، يسهرون ، ينامون ، ربما يحلمون .

شخص واحد خدش كل هذا ، احدث شرخا في ذلك الجدار المانع ، هو ابو الفيط المنيسى . ذهب الى البلد . ترك العزبة فجأة ، شوهد ذات صباح وهو ذاهب الى دميسنا ، هناك ، قابل مقاول الانفار الكبير . في المساء ، عاد الى امه ، طلب منها أن تعد له زواده. قالوا عنه ، في العزبة ، ان البنت صابرين ، أكلت بعقله حلاوة .

مازالوا في عزبة الحاج هبة الله المنيسى يتذكرون ، ذات مساء ، شمس ساعة الغروب الهادئة الخجلى ، نزول تلك الطبقة اللينة التى تحيط بالاشياء في الليل ، رائحة الليل تهب على الناس ، تحمل معنى الخصوبة والنماء ، ومذاق قطرات المياه ، ورائحة الارض المروية حديثا . في هذا المساء ، خرج ابو الفيط ، معه من يحمل له الزوادة ، تاهت معالم الاشياء والظلال في غبشة المساء . كان ابو الفيط حزينا ، لحظة الوداع ، ألم ساعة الفراق ، حيث لا يجدون الكلمات التى تعبر عن الشوق والاسى الكامن في هذه اللحظة . خرجت اصواتهم مستطيلة : مسطحة :

ـ مع السلامة يا ابو الفيط .

غمست عيونهم في الدموع :

ـ تروح وترجع لنا بالسلامة .

أياديهم تلوح في الفضاء اللانهائى ، وكان الحزن منطفئا في الصدور ، هنا ، سادتى ، عزبة الحاج هبة الله عبد الجبار عبد القوى المنيسى .

التحقيق

الثلاثاء ٢٣ من مايو ١٩٦٧

اشـــارة

من مركز ايتاى البارود

الى مفتش صحة المركز

يرجى التـكرم بالافادة ، عن سـبب وفاة المدعـوة صابرين عبد الستار ، من اهالى قرية دميسنا التابعة للمركز ، وذلك من واقع الدفاتر الخاصة بكم .

وللاهمية القصوى ، نامل عدم التاخير ، وان توافى بالمطلوب بصفة عاجلة .

مع الشكر .

التاريخ : / /

مبلغ الاشارة

امضـــاء

تلك لحظة لا تبعث الا الاسى فى النفس ، ذرات الظلام تتساقط ، اللون الرمادى المغبش ، كل فرد ينسحب الى داخل نفسه ، لحظة سقوط الليل على العزبة . قرص الشمس الاحمر القانى بعد عـودته من رحلة اليوم الخرافية نام على الافق البعيد ، الحقول المتراميـــة الاطراف تحولت خضرتها الندية فى ظلام المساء الوليد الى لون أزرق غامق ، بقايا الشمس الغاربة ، تتوه بعالمها ، تتكسر على الجـدران الطينية الواطئة ، ذؤابات الاشجار ، الخضرة البعيـــدة المدى ، الحارات الضيقة .

فى مثل هذه اللحظة ، من كل يوم ، يقف عبد الستار على راس الجسر الموصل بين العزبة ، وبين الجسر العريض ، يقف صامتا . الفلاحون عائدون الى منازلهم بعد يوم من العمل فى الحقول ، الصبايا خارجات ليملأن الجرار من الترعة القريبة . الجسر المترب العريض، تناثرت عليه قطع روث البهائم ، بقايا علامات سيارة عبرت هـذا الجسر منذ زمان مضى .

يعود الفلاح الى منزله ، على باب المنزل ينادى : يابت . ينزل

من فوق حماره ، يدخل الحمار بمفرده ، يقف الرجل ، يستدير الى الجاموسة والبقرة اللتين يمسك بمقودهما فى يده ، يحتويهما بنظرة حانية ، يدخل الى الزريبة . يربطهما . يضع لهما العليق بنفسه . يخرج الى وسط داره . يمسح أركانه الاربعة بنظرة حيرى . يتشمم رائحة المنزل ، لا يرى دخانا خارجا من الفرن أو الكانون ، يدرك على الفور أنها ليلة من ليالى القحط . يخرج الى الحارة الضيقة ، يجلس على المصطبة . على البعد تغوص الشمس التى رافقته يوما بأكمله فى متاهات غريبة ، لا يدرى عنها أى شىء . يجلسون على المصاطب ، يتجمعون ، يتقاربون من بعضهم البعض ، يحكون الحكايا ، يقولون كل شىء . الحنـان الذى بلا حـدود ، الشىء المبهم الغامض يتوسد الاعماق الحبلى بالحب ، بالرغبة فى الوصال ، يتحدثون بلا نظام ، فى كل الامور .

يتحرك عبـد الستار قليلا الى الناحية المواجهـة للعزبة ، مكتب الناظر ، ومكتب الباشكاتب ، هناك ، يرفع يده بالتحية :

ـ السلام عليكم .

لا يرد عليه الكاتب . تسقط يده الى جواره . يخرج الـكاتب دفترا صغيرا ، متآكل الاطراف . يفتح الصفحة الاخيرة . يدنى الدفتر من عبد الستار ، يعطيه القلم :

ـ خد يا سيدى .

يطلب منه التوقيع . بسم الله . بخط متآكل متعرج يـكتب اسمه ، عبد الستار . يقوم الكاتب ، يتجه الى المخزن الداخلى ، مخزن مظلم ، تنبعث منه رائحة عفنة ، ولكنه محبب الى نفوس كل الذين يسكنون العزبة . يخرج الكاتب البندقية الميزر الصـدئة ، يسلمها لعبد الستار :

ـ البندقية سليمة اهى ياشيخ الغفر .

يتحسس البندقية بحنو بالغ ، يحتويها ، يحتضنها :

ـ سليمة ان شاء الله ياحضرة الباشكاتب .

يأخذ منه الطلقات العشر . يضعها فى جيب الصديرى الداخلى . يتأكد ، أمام الباشكاتب ، من وجود الطلقات العشر فى جيبه . يرفع يده بالتحية مرة أخرى :

ـ طيب السلامو عليكو بقى .

عندئذ فقط ، يرد عليه الكاتب :

- ليلة سعيدة ياشيخ الغفر .

البسمة على وجهه ، فى يده المفتاح والقفل ، يهم باغلاق المخزن المعتم الرطب . يخرج من مكتب الكاتب ، لا تتكسر ظلاله هذه المرة على الارض الرمادية ، فالشمس قد ضاعت فى المتاهات الغريبة ، النائية . يحرك أصابعه في فتور ، يعود الى نفس وقفته على راس الجسر ، عند مدخل العزبة . بجواره لافتة صغيرة ، انه لا يعرف القراءة والكتابة ، وان كان يدرك أن المكتوب فيهـا هو : عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، سهم يشير الى الناحية التى تغرب منها الشمس، مكتوب عليه : دميسنا ٣ كيلو متر ، سهم آخر يشير الى الناحية التى تشرق منها الشمس ، مكتوب عليه : الموردة ، كيلومتر ونصف ، سهم ثالث يشير الى الناحية البحرية ، نكلا العنب ٥ كيلو مترات ، مكتوب أيضـا : أمامك نقطة بوليس على بعد ٥ كيلو مترات .

يعلق عبد الستار البندقية فى كتفه الايمن ، يحتضن القايش بكلوة يده اليمنى ، يتحسس الطلقات العشر بيده اليسرى . وهو عائد الى منزله ، يشم رائحة الارض والماء والخضرة . الليل يملأ خباشيمه بأشياء مبهمة غامضة ، هديل الحمام العائد الى البنانى ، مع آخر أضواء اليوم الميت ، حبات الظلام فى الجو . لن يسمع ضحكتها بعد اليوم ، لن يرى بسمتها .

آخر العائدين من حقولهم ، نهيق حمار بعيد . صوت من يغنون للادهم ، وابو زيد الهلالى ، والزناتى خليفة ، فى الحقول القريبة من العزبة . رائحة الليل لا تحمل لعبد الستار سوى الخوف الغامض من المجهول ، عندئذ ، يتحدد فى أعماقه شعور بالرهبة ، الاستعداد لمغامرات الليل الاسطورية . فى قلب الظلمة ، التى تشتد آخر الشهر عن ظلمة مخزن الباشكاتب . يعود الى منزله ، حلقات السمر على المصاطب ، أبواب البيوت .

- السلامو عليكو يارجاله .

يرفع يده ، يسير ببطء متعمد .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، اتفضل ياشيخ الغفر .

يبتسم لنفسه فى رضى . يغمغم بكلمات عن الستر ، وكثرة الخير .

يواصلون حكاياهم الحزينة . ست الحسن والجمال ، كانت

تجلس فى القصر العالى ، فى انتظار الشاطر حسن . فجأة ، يسأل أحدهم :

ــ هو فاضل قد ايه على دور الميه مايیجى .

عبد الستار فى طريقه الى منزله . فى وسط الدار ، زوجته ، أم صابرين ، اسمها الحقيقى ستهم ، ابنها البكر هو الزناتى ، بيد أن الكل يناديها ، على خلاف العادة ، أم صابرين . عندما يصل الى قمر الحارة الغويطة . يقف أمام باب منزله ، تطالعه من أعلى الباب حدوة حمار ، وبصلة قديمة معلقة على واجهة المنزل . يخلع البندقية من كتفه ، يحملها فى يده ، يدخل منزله .

فى وسط الدار ، حصيرة قديمة مفروشة ، الحصيرة الجديدة لا تفرش الا فى المندرة الواسعة ، وفى حضور ضيوف . يخلع مداسه :

ــ سلامو عليكو .

يقف ابنه الزناتى :

ــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

يجلسان معا . اللمبة الجاز معلقة على جدار رمادى ، ظلها يتماوج فى ليونة على الخشب والبوص فى السقف . يضع عبد الستار البندقية الى جواره ، يتربع ، يضع يده فى حجره ، يستفرق تفكير عميق .

ــ ماتجيبى العشا يابت .

أنجبت له ستهم ، بنتا هى بسمة الامل فى العزبة ، وابنا هو خيرة الرجال فيها ، ولا يناديها الا يا بت . هذا فضلا عن اثنين آخرين من الاولاد ، لا يقول عنهم عبد الستار الا أن الله قد افتكرهم فأخذهم . أما هى فانها لا ترد عليه الا ب يا أبو الزناتى . بيد أنها فى لحظات الصفاء والحب ، وهى قليلة ، تقول له : ياستورة . أما عندما يجلسان فى المندرة البحرية . تجلس الى جواره ، تفرش جسمه بنظرات حالمة ، الحنان الدافىء ، الحب العميق ، عندئذ يخرج الصوت مبحوحا ــ اللا ياشيخ الغفر .

لا يستطيع عبد الستار أن يرد . لا يوجد فى العزبة غفير سواه ، وهو أيضا ليس بشيخ غفر . ولكنها تخرج من فم ستهم ، حلوة ، مفروشة بالامانى العذاب ، مثقلة بالاحلام المبهمة ، الغامضة كالليل الطويل المقبل .

تقبل ستهم حاملة الاكل ، تضع الطبلية فى المنتصف . يجلسون حولها ، نظراته الحيرى تبحث عن شيء ــ شيء ناقص ، غائب . تستقر النظرات على المكان الذى كانت تجلس فيه صابرين . تغيم الدنيا في نظراته . الظلال المنكسرة على الجدران الكالحة ، الحصيرة المفروشة بالظلال الباهتة ، تتوه معالم الرسومات المنقوشة على الحصيرة بالاحمر الصارخ والاخضر الهادىء بين طيات الظلال :

ــ انا لله وانا اليه راجعون .

تقف اللقمة فى حلق ستهم . تمتلىء العيون بالدموع . تشهق ستهم :

ــ خبر ايه يا راجل . ده حرام والله .

عبد الستار ينظر الى الاشياء من حوله فى صمت ، البوص فى السقف ، الجدران البليدة ، الزناتى ، ستهم ، الدمعة الوحيدة التى تجود بها العين ، تقف بين التجاعيد ، تنزل ، تتوه فى الذقن الذي لم يحلق منذ أربعين يوما . يحس بها عبد الستار رطبة ، ندية ، بين الشعيرات الخشنة . يلقى باللقمة الجافة من يده . ليمسح فمه بظهر يده اليمنى . ينفض حجر جلبابه من اللقيمات المتكسرة .

ــ اعملى الشاى يابت .

يغرق فى الصمت من جديد . يتوه فى الظلال المتكسرة . الزناتى، زينة شباب العزبة ، لا يتكلم ، لا ينظر الى والده . رشفات الشاى تتهادى كتعليق على الحادث ، ثم لا شيء بعد ذلك .

يخرج عبد الستار علبة الدخان ، الدخان فيها قليل ، يلف سيجارة ، لابد وأن تكون رفيعة ، حتى يكفيه الدخان الباقى فى الليل الطويل المقبل . السيجارة هى أنيسه الوحيد فى الليالى الطوال . سحابات الدخان الازرق تتلوى وسط الدار . ينظر أمامه ، على الجدار المقابل ، الادهم منكس الرأس . أحس عبدالستار بالضيق ، لا يدرى حقيقة ما السبب فى ذلك . همس لنفسه : معلهش يا أدهم . بكرة تتعدل . لكنه أدرك أنه لا يوجد من يستطيع أن يعدل الامور المعوجة ، لا الادهم ،ولاعشرة آخرون مثله ، صورة الادهم تاهت معالمها بفعل تساقط البياض من الحائط .

ــ ربنا يرحمها .

ــ ما رحمة الا رحمة الحى .

صورة الادهم ، رسمها نقاش أتوبة من دميسنا ، فى زواجه ستهم ، فى ليلة الدخلة ، خرج عبد الستار ، وسط الدار خال الا من شقيق ستهم ، أهالى العزبة فى الخارج . لحظـــة انتظار الفة القسوة ، الصمت ، المنديل الابيض فى يده عليه بقع من الدم الاحمر ، تنطلق زغرودة ، تخدش الصمت ، تخترق الظلام . نقطة الدم هى دليل العفاف ، الفرح ، البشر . فى الصباح ، بعد أن استحم وفطر وشرب الشاى ، ودخن السجائر الواحدة تلو الاخرى كان يحكى له كل شىء . وعندما كانت تلد له ستهم ، كان يُعدل من وضع جلبابه الذى يرتديه بالمقلوب . يذهب الى الادهم ، يتشاور معه فى اسم المولود .

أما الليلة ، ستهم تقوم بعمل الدور الثانى من الشاى . الاسى يترقرق فى الاركان المظلمة ، وعلى الجدران الكالحة ، يفترش المساحة القليلة التى تفصل بين عبد الستار والادهم . شعر بحنين للوقوف على رأس الجسر . فى هـذه اللحظة ، الليل يزحف على الحقول المترامية الاطراف ، الحقول الواسعة تتحول الى بحر بلا حدود ، هامات الاشجار تتوه معالمها على المدى البعيد .. شرب الدور الثانى من الشاى . حمد ربه على كل حال . قام عبد الستار من مجلسه :

ـ ربنا أمر بالستر .

ألقى نظرة على الادهم ، استأذن منه ، خرج ، الزناتى جالس فى مكانه . ينبش أسنانه بعود كبريت .

خرج عبد الستار . سار ببطء . فى الظلام العميـــق ، يرمى الانسان نظـرته ، ترتد اليه خائبة ، لا يرى الانســان كف يده ، أو السائر الى جواره ، لا يدرك حتى ملامح الاشياء ، تأتى اليه الاصوات فلا يدرك مصدرها . الظلام يغتال الانوار الخارجة من النوافذ . والابواب .. عبد الستار يبدأ الآن رحلته . وراح الادهم على تلبيه البارود هزه ، كركون شرف معتبر كله عشان الادهم .

مر على دكان أبو الفتــوح ، أخذ باكو دخان ودفتر بفرة . كان هناك جمع من الرجال ، الراديو يجمعهم ، فى مثل هذا الوقت ، من كل ليلة :

ولقد تحركت قواتنا المسلحة الى حدودنا فى سيناء ، وذلك لدفع

العدو الى توزيع قواته على الجبهة السورية والجبهة المصرية ، وذلك ان أمن العالم العربى ، كل لا يتجزأ ، هنا القاهرة .

لم يدفع الثمن ، أخرج ابو الفتوح دفترا ملطخا بالزيت والسمن والعسل الاسود . وقيد فيه ثمن الباكو ودفتر البفرة . فى أول الشهر يدفع ماعليه مرة واحدة ، تماما ، ككبار الموظفين فى البندر . أفرغ باكو الدخان فى علبته الصدئة . لف ورقة الباكو ، وضعها فوق الدخان ، كى لا يتسرب من العلبة .

ـ سلامو عليكو يارجالة .

ان ما يهدد سوريا اليوم ، قد يهدد مصر غدا ، لذلك كله . فقد أعلنت حالة طوارىء ١٠٠٪ بين أفراد قواتنا المسلحة .

ردوا عليه السلام . لم يسمع باقى كلامهم ، ولا حديث الراديو . أسلم نفسه للظلام والصمت . وصل الى رأس الجسر . أدرك أن الليل رهيب ، وأنه يخافه ، يخشاه ، يعمل له ألف حساب. السماءفوقه متاهة غريبة ، بحر بلا شطآن . ينبوع حزن . نظر الى الترعة تحته . أدرك أنه حزين ، وان الادهم أكثر حزنا منه . جلس على جذع الجميزة التى قطعت فى العام الماضى . ألقى نظرة على بيوت العزبة . استوقفته من خلال العتمة سراى الحاج هبةالله المنيسى ، مبنية بالطوب الاحمر والاسمنت ، بالمسلح . علىسطوحها العالية ايريال ، وخشبة تحمل سلك التليفون . أمام السراى حديقة جميلة . خلف السراية مضخة مياه ، ماكينة النور ، ومساحة يسمونها الحوش الكبير ، فيه الطيور ، وحجرة المعاش ، وكل ما يسمع عنه أهل العزبة من خيرات الله .

سبحان من له الدوام ياعبد الستار ، والحياة تمضى بطيئة ، بطيئة ، قاسية ، تغتال الامانى ، وتحنط الاحلام العذاب ، وتفرش زوايا النفوس برغبات مبهمة غامضة ، مثل غبشة المساء ، وتزرع كل الاركان بحزن عقيم ، تماما ، مثل دكر النخل . وصابرين . البقية فى حياتك . تحت التراب . حياتك الباقية ، فى أعماق الثرى ، بعيدة ، نائية مدفونة فى حبة القلب .

ـ لو كان بايدى . لكن معلهش ياصابرين .

خبط يده على فخذه . وقف مكانه .

ـ عظم الله أجرك .

لم يبك أمام أحد من الناس .

ـ شكر الله سعيك .
حضر ليلة المأتم . عاد فى آخر الليـــل الى داره . ســـمعهم يقولون : لازم فيه حرب . دول أخدوا الاحتياط . نازلين فى الشبان لم من البلاد . ماتت صابرين . فاسعفيني يا دموع العين . تقلب على الجنبين طول الليل ، لكنه لم يبك . عندما حملوا جثمانهــا فى دميسنا ، سار خلفه ، نظر الى الزناتى ، تعبير ميت على الوجـــه الاخرس . صابرين ، الوجه يقطر عذوبة ، تسيل منها الرقة :
ـ صباح الخير يابا .
وضعوها فى قبر صغير ، فيه بقايا نشع ، اهالوا عليها التراب.
ـ احنا من غيرك مانسواش بصلة يابا .
القبر مظلم ، سدوه بالطين المثقل بالتبن . وقف فى أول الصف. تلقى العزاء . آلاف الايدى احتضنت يده . الوجوه الحزينـــة ، النفوس المفعمة عذابا . جلس فى المندرة الواســـعة . ســـمع آيات القرآن ، أكل معهم بالليل . شرب القهوة المرة . دخن السجائر التى اشتراها كى يقدمها للمعزين . ولكن عينيه لم تدمعا . سهر طـــول الليل . فى منتصف الليل . عبرت سماء العزبة ، طائرة كل ليلة .
بيد أن عبد الستار ، فى صباح اليوم التالى ، يذكر هذا جيدا ، عندما كان يقضى حاجته فى الحقل القريب من العزبة ، شعر برغبة فى البكاء . قام من مجلسه . استند الى صفصافة صغيرة على رأس الحقل . أمسك رأسه بين يديه . نظر الى صفاء سماء ابريل الكاذبة بكى . اهتز جسمه من شدة الحزن . حاول بعض الناس اسكاته . ولكنهم تركوه .
ـ سيبوه ياجماعة ، دا يريحه .
صاح ، وعيناه الى السماء العالية :
ـ يا الله . يا الله .
مصمصت الشفاه من حوله :
ـ لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .
شرب السماء الزرقاء حتى الثمالة . تجرعها على مهل :
ـ ياسيدى أحمد يارفاعى مدد .
تساءل أحدهم فى دهشة :
ـ الراجل حصل له لطف .
سقط الصمت ثقيلا على الجميع . توقف عن البكاء . قـــال

الادهم : ليه جبت لى الفطور ونسيت تجيب لى العشاء ، ياخوفى يا بدران لا يكون دا آخر عشا . ماتت صابرين ، فاسعفينى يا دموع أنعين .

رغم كل ماحدث ، فانه يحبها . يشرب معها ، كل مساء زرقة سماء العالم . ماتت صابرين . دفنتها بيدى . ماتت صابرين . مازلت أذكر كل شيء . الحزن يفترش المساء . كان اليوم هو يوم الخميس ، الثالث عشر من ابريل . من يمت فى هذا اليوم فهو من الصالحين ، يضاء قبره طيلة الليلة الاولى ، ليلة الجمعة ، بقنديل أبيض . هكذا يقولون . سنة ألف وتسعمائة وسبعة وستين . لحظة ما قبل الغروب ، الليل يجثم على الحقول ، السواقى ، الطرقات ، العزبة . ماتت صابرين . صوت يشرخ الهدوء الجاثم على العزبة ، يخدش الصمت المسربل بالظلام : يالهوى . الحقونى . صابرين ماتت .

كانت الساعة الثامنة مساء ، هبات النسيم ، فراغ شهر ابريل . حمار بعيد ينهق . شخص يغنى ، الحاج هبة الله المنيسى يمر أمام العزبة ، فى يده راديو صفير ، سلام عشانه ، سافو ، حافظ كيانه ، سافو . سافو دا مفيش أحسن منه . صوت يؤذن فى المصلى الصغيرة .

ــ الصلاة والسلام عليك . يا أشرف خلق الله .

ماتت صابرين . وكانت طقطقات مقص الاسطى عبده الذى افترش الارض وراح يحلق للكلاف ، بجوار الدوار ، تأتى خافتة . تحدث أمام المصلى عن الثواب والعقاب ، والحياة الاخرة . تهدمت تقدمت بى السنون فجأة . الام سر ابنتها . ويقولون هنا : أن البنت تطلع لامها ، وأن الحاج هبة الله المنيسى قد يمتلك كل شيء . حتى العلاقات بين الناس ، ولكن صابرين ، لا أعتقد . ربما تصورت هى ذلك ، ويقولون أن الستر نعمة من الله على عباده ، وانها ــ صابرين ــ تستحق ما حدث لها . واننى مجرم ، وأن الله غفور رحيم ، وأنه فى نفس الوقت المنتقم الجبار . واننى رجل حقيقى ، مثل الادهم ، وأبو زيد الهلالى ، والزناتى خليفة ، وأن شاربى قد تقوس منذ أن ماتت صابرين .

قالت لى الداية :

ــ مبروك ، بنت ، نسميها ايه .

فكرت طويلا . رفعت راسى :

ـ نسميها صابرين .

دخلت حجرة زوجتى . طشت ماء . دم احمر على الارض ، صراخ طفل . قطعة من اللحم الاحمر فى لفة صغيرة ، واء ، واء . القيت على الجميع نظرة فاترة ، خرجت . كل الذى كان يهمنى ، فى هذه اللحظة ، هو كيفية احضار مبلغ ربع جنيه للداية . عدلت الجلابية وكنت قد لبستها مقلوبة ، حتى يزول الكرب ويأتى الفرج ، وتضع ستهم ، هكذا طلبت منى الداية . ذهبت الى الدكان :

ـ ادينى يا أبو الفتوح ربع جنيه سلف لاول الشهر .

ـ حا اضيفه ع الحساب .

وعدت الى البيت .

ليلة ان ماتت صابرين ، كنت فى الحوض القبلى ، بعد منتصف الليل بقليل . لحظتها ، تحسست الجلاء بصدرى ، بيدى ، بعينى المتعبتين ، خاطبت جدران الليل ، نجومه ، صمته ، ظلامه . وقفت هناك ، على حافته الابدية . قالوا . ان كل شىء لا قيمة له مادامت صابرين قد ماتت .

وقف عبد الستار . سار الى منتصف الجسر . على البعد ، توجد دميسنا ، هو من أهلها من الاساس . هناك أهله ، صداقات عمره ، ولكنه يسكن هنا فى العزبة ، منذ أن عمل غفيرا عند الحاج هبة الله المنيسى . فى ليالى المولد . شىء لله يا أهل الله . وفى ليالى الافراح ، التى تكثر بعد جنى محصول القطن من كل عام . يخطف رجله . يذهب الى دميسنا ، يعود الى العزبة ، يلف فى كل الحقول ، يحدث نفسه ، يكلم الحقول ، يناجى النجوم الساهرة . يعود الى رأس الجسر . يجلس . يوغل الليل فى صمته وسواده . لا يخاف شيئا ، صحيح أنه المسئول عن كل شىء فى العزبة . فى موسم القمح عليه أن يحرس الحقول المترامية الاطراف ، لا من السرقة ، بل من احتمال أن تحرق . تشعل النار فى كرة من القماش مغموسة فى الجاز . تربط فى ذيل كلب . يطلق . يجرى فى الحقول بجنون لا مثيل له . تشتعل النار ، يخرج الرجال والنساء والاطفال ، الرجال فى ملابس مقطعة . ممزقة ، ينامون بها ، النساء شبه عرايا ، مفكوكات الشعر ، فى عيونهن تبدو الدهشة . يكتشفون

أنها فى حقول القمح الواسعة ، يحدقون بعيونهم الصغيرة ، التى بلا رموش ، فى النيران ، يحددون ، رغم الظلام ، مكانها .

ـ دى فى الحوض البحرى ، اللى كان مملح .

يعرفون فى أرض من . يعودون الى منازلهم ، يتركونها حتى تسكت من نفسها . فى أول أيام القطن ، وهو نبات أخضر صغير ، يحرسه ، قد يقلعه بعض الافراد فى الليل ، يسهر فى الحقول الواسعة . تهب رياح الليل ، تتحرك الشجيرات الصغيرة . يصيح :

ـ من هناك .

من أول العزبة ، الجهة المقابلة لسراية الحاج هبة الله المنيسى ـ هناك دوار الوسية ـ العجول فيه بالالاف ، لا تأكل البرسيم ، بل تعيش على الكسب الذى يشتريه الحاج من كفر عوانة ، ويأتى محملا على سيارة نقل كبيرة ، تعلن عن قدومها من بعيد سحابات الغبار التى تسير بنفس سرعتها . هذه العجول لا ترى الشمس . فى الدوار من الداخل ، توجد طلمبة مياه لها حوض واسع . هذه العجول يحرسها عبد الستار . فقد تسمم فى ظلام الليل . يوضع لها السم فى المزود الكبير . « هذه الاشياء ، تحدث عادة ، كشكل من أشكال الانتقام من الحاج هبة الله المنيسى ، على طرد أحدهم من العزبة ، أو ابعاده عن العمل أو خلافا على نظام الرى ، أو لقطعه المسانية عن أحد . وقد تحدث لاسباب أبسط من ذلك . لتصور احد الفلاحين أنه أهين من الحاج . وتتم عادة فى الليل ـ ويعمل لها ترتيب سابق ، وباحتياطات لا نهاية لها » .

حرست كل شىء ، ظلام الليل ، صمته ، نجومه ، لم يحدث فى العزبة شىء منذ مدة طويلة . الذئاب والثعالب والافاعى تعرف صوتى ، وطائرة منتصف الليل أحرسها، حتى تغيب عن الانظار . ولكنك يا صابرين ، لم أقدر على حراستك ، أو حمايتك من عزبة المنيسى ، ولا حتى من صفوت المنيسى . عندما يبزغ القمر تكون الساعة العاشرة مساء . وعندما تعبر الطائرة سماء العزبة ، قادمة من ناحية دميسنا . يكون منتصف الليل بلا زيادة ولا نقصان . يشعل السيجارة الثانية . يسير قليلا على الجسر المترب . يرفع عينيه ، الليل ينام على الحقول البعيدة ، العزبة ، القرية ، يلف كل شىء بداخله . الصمت يغتال أصوات الذين يغنون ، يعبرون عن الشوق الملتاع ، يعتبون على الزمان ، يذرفون الاهات .

ـ سلامو عليكو يا عبد الستار .

أحس أن هذا الصوت لشخص غريب عن العزبة ، فهـو يميز كل الاصوات هنا . انتبه فجأة .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . اتفضل .

اقترب منه . وضع يده فى يده . هزها . عرف فيه أحـد غفراء دميسنا النظاميين . عندما أصبحا وجها لوجه ، شم فيـه رائحة الليل ، والارض ، والماء فى الترعة الصغيرة ، النسـمات الرطبة فى سماء الله العالية . خرج صوته مرعوشا :

ـ اتفضل ياشيخ الغفر .

ـ كتر خيرك .

الصمت . ســارا ، بلا ارادة ، ناحية العزبة . بعد قليل يبزغ القمر من الناحية الشرقية .

ـ والله ازيك ، العزبة نورت .

لولا ظلام الليل ، لعرف أهل العزبة كلهم سبب قدومه ، ولكانت فضيحة . رائحة الليل لا تحمل له أى خير . منـذ أول هـذه الليلة . منذ أن وقع بخطه المتعرج باستلام البندقية والطلقـات العشر . منذ أن أحاط الادهم بنظرة حزينة . وهو يدرك أن حـزن هذه الليلة ، حزن جديد عليه ، حزن غريب .

ـ الله يبارك فيك يا عبد الستار .

أحس فى هذه اللحظة أنه غريب عن العزبة ، وعن دميسنا ، وعن ستهم ، وعن الزناتى وصابرين ، والدكان الوحيد فى العزبة ، والجنيهات الثلاث فى أول الشهر ، وساعات الحظ آخر الليل ، والبندقية الصدئة ، والطلقات العشر ، وصلا أخيرا الى الجسر . سحبه من يده :

ـ اتفضل .

ـ كتر خيرك . أنا أصلى ...

سكت . لم يكمل كلامه . أخرج عبد الستار علبـة الدخان من جيبه . أعطاها له :

ـ خد لف سيجارة .

ـ كتر خيرك .

لحظات الصمت الممزوج بنوع من الحرج والحياء :

ـ أصل العمدة عايزك .

ــ خير ان شاء الله .
ــ والله ما اعرف ياخويا .
سارا معا . عبد الستار ليس غفيرا نظاميا ، وان كان يتقاضى نفس ماهية الغفير ، ثلاثة جنيهات ونصف . لم يتعلم سوى أن يكتب اسمه الاول : عبد الستار . لا يعرف من الدنيا الا أن دميسنا تقع فى الغرب ، بعدها تنام ايتاى البارود ، أحلى بلاد الله فى نظره وأما دمنهور ، لم يذهب اليها ولا مرة واحدة . من خلف ايتاى البارود تغيب الشمس .
ــ مش لما أقول لابويا الحاج .
خاف أن يترك العزبة بمفردها .
ــ دول عايزينك على طول .
عاد عبد الستار الى منزله . نادى على الزناتى . خرج له :
ــ خد بالك م العزبة على ما أرجع لك .
خرج عبد الستار . الصمت يغتال صوت تنفسه .
ــ ابقى قول للحاج هبة الله ، انا راجع على طول . العمدة طالبنى فى البلد .
وكانت النجوم فى السماء مبعثرة ، مبتورة الوجه ، سارا صامتين . الصمت الحقولى البعيد المدى ، يخدشه بين الحين والاخر نباح كلب ، غناء رجل يسير على البعد ، نقيق الضفادع ، صفير الصراصير ، خرير المياه فى الترعة المجاورة .
ــ دا حتى المأمور هناك ، والدكتور ، وراحو ناحية الترب .
رمشت عيناه فى دهشة ، استغراب ، خوف . الامر يتعلق بصابرين . لم يعلق بكلمة . الصمت أفضل . الليل أيضا صامت . فى هذه اللحظة ، صافحت قدمه ظله على الارض . أدرك أن القمر قد بزغ من الافق . توقف . نظر اليه . استدار . أكمل السير الى الامام . تنتظره دميسنا ، حيث المقابر ، المأمور ، العمدة ، الطبيب الشرعى ، صابرين ، المدفونة هناك منذ أربعين يوما مضت .
صابرين فى اللفة ، قطعة لحم حمراء . صابرين تبول على نفسها . صابرين تذهب مع أمها الى السوق فى يوم السبت من كل أسبوع . صابرين تقف على الباب لحظة عودته بالبندقية ، مع سقوط الليل على العزبة .

ـ أبويا جه ، أبويا جه .

تقف بين قدميه ، صغيرة ، حلوة ، ندية ، يرفعها بين يديه ، يقبلها ، يحتضنها ، صابرين تجمع روث البهائم ، تصنع منه أقراص ، تبيعها فى السوق يوم السبت ، فى نكلا العنب . صابرين تغنى فى الحقول المترامية الاطراف ، تحدو والكل يرد وراءها . تغنى للحب ، للامل ، للحزن الدفين ، تعتب على الزمان، تشكى هجر الحبيب . فى نهاية المطاف ، والسماء خالية ، وفى الجو فراغ عذب ، يطلبون الصبر ، يتذرعون به ، يعانقون به يأس الحياة . يحضر أبو الفيط المنيسى . يجلسان معا فى المندرة .

ـ اهلا وسهلا .

ـ اهلا بيك ياشيخ الغفر .

يحدق فى وجهه . يتفرس فيه :

ـ انا طالب القرب منك ياشيخ الغفر .

تزغرد امها . صابرين ترفع عينيها الواسعتين الى سقف وسط الدار فى خجل . يحتويها عبد الستار بنظرة حانية .

ـ انما ماتعرفشى العمدة عايزنى ليه .

ـ والله ما أعرف ، انما لازم فيه حاجة بخصوص المرحومة .

معالم ظله ، تبدو الان واضحة تماما . القمر يرسل نوره الرمادى على كل شىء . عندما أشرق القمر ، بدت له حقائق الاشياء واضحة فأدرك بالتحديد ، من خلال تداخل الامور فى ذهنه ، ان ذهابه الى دميسنا ، يعنى بالتحديد أنه ذاهب الى العمدة وشيخ الغفر ولجنة العشرين ، والكتاب ، والمدرسة ، والجامع الكبير وسيدى أحمد ، وفى البلد ، عشة صغيرة يملكها الولد تعلب ، يشربون فيها الشاى ، ويدخنون الجوزة ، ويسهرون حتى منتصف الليل . فى البلد ، كل شىء السماء ، والنجوم ، الصمت والظلام ، الاحاديث والفضائح فى البلد ، ليل ينام على البيوت الواطئة المستكنة فى الحارات الضيقة ، وقمر يشرق ويغيب ، وطائرة تعبر سماءها فى منتصف الليل ، وبنات لسن أحلى من صابرين ، وشباب ونساء ، وحكايا ككل الحكايا ، لاكتها الافواه المتعبة حتى ملتها .

اخيرا ، بدت له قريته ، دميسنا ، تغوص فى طيات الظلام . عليه أن يعبرها الى الناحية الاخرى . حمدا لله . فالوقت ليل . اسرع خطاه . بعد قليل يصل الى دوار العمدة ، أوضة التليفون ،

يعرف كل شيء ، يزداد حزنه ، يغوص حتى الاعماق فى كثافته ، عندما وصل الى دوار العمدة ، قالوا له : ان العمـدة والمأمور والدكتور ذهبوا الى المدافن .

ـ شد حيلك ياعبد الستار .

سار الى المدافن .

ـ دى النيابة بتحقق فى حكاية البنت صابرين .

والستر نعمـة من الله . مين عارف . لا أحد يعرف سـوانا نحن الثلاثة ، أنا وستهم ، والزناتى .

ـ اللهم اجعله خيرا .

ـ وحد الله ياراجل . انت بتكلم نفسك .

رد عليه عبد الستار بصوت تعمد أن يكون واضحا :

ـ لا اله الا الله .

ابتسم فى مرارة . حبات العرق الباردة تغطى وجهه . أحس وهو يسير فى دميسنا . من خلال عدم ادراكه للأمور ، انه يفتقد منظر قطع السحاب البيضاء فى سماء الخريف الحزينة . قطرات الندى على الاوراق الخضراء فى الصباح الباكر ، رائحة الليل ، رائحة الارض والخصوبة والماء ، الارض التى يحبها من أعمـق الاعماق . غير انه أحس بحزن غريب فى أعماقه . لا الدموع ، ولا أى شىء آخر بقادر على تهدئة نفسه .

وصلا الى المقابر . شاهدها من بعيد ، صابرين ، على المصطبة الامامية للمقبرة . المأمور ، العمدة ، الدكتور ، شيخ الغفر ، عدد من الغفراء ، شيخ البلد ، اللحاد ، كلوب انتشرت على زجاجتـه نتف السناج الاسود ، يحمله أحد الغفراء . خارت قواه . الطبيب يشق الكفن بمشرط فى يده . لا يدرى حقيقة ماحدث بعد ذلك . هاج ، ثار ، بكى ، عض الارض .

ـ يا أرحم الراحمين ، فين رحمتك .

ممنوع من الوصول الى مكان صابرين . طقطقة عظام ـ رائحة نتنة . كلمات حبلى بالحزن عن الجنة والنار . والعقاب والثواب .

ـ صابرين ماتت ياعبد الستار .

لا يرد على زوجته . تصرخ . يجتمع أهل العزبة ، يعـرفون الخبر . يذهب ناظر العزبة الى ايتاى البارود ، يشترى الكفن ، أدوات التغسيل . يحضرون ميكروفون . مقرىء القرآن . رجل

يصنع القهوة المرة . يحضر الحاج هبة الله المنيسى ، يواسيه ، يصافحه :

ـ شد حيلك ياراجل .

يعطيه عشرة جنيهات كاملة .

المرحومة كانت ، وكانت ، وكانت .

الطبيب الشرعي يملي تقريره على الكاتب :

انه في يوم الثلاثاء ٢٣ من مايو ١٩٦٧ ، ميلادية ، الموافق ، بناحية دميسنا مركز ايتاى البارود ، محافظة البحيرة ، بمعرفتنا نحن الدكتور ، وبحضور كل من . نثبت الآتى .

الطبيب يأخذ من الجثة شيئا ما . يضعه فى أنبوبة صغيرة . يلفها بعناية . المأمور يعيد قراءة الاوراق التى فى يده على ضوء الكلوب الباهت .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ..

حضرة مامور مركز تيبه البارود المحترم

دام

بعد التحية والاحترام .

نحن واحد من اهالى بلدة دميسنا . تبع النقطة الثابتة فى نكلا العنب ، تبع سيادتكم ، نخبر سعدتكم ، لوجه الله تعالى ، ان البنت صابرين ، بنت عبد الستار ، غفير عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، تبع زمام دميسنا ((بلدنا)) ، والتى ماتت واندفنت بترب الناحية فى ١٤ـ٤ـ١٩٦٧ نحيط علم سيادتكم ، والاجر والثواب عند الله، ان صابرين ، ماتت مسمومة بتوكسافين ، ولم تمت موتة ربها ، وهذا للعلم ، والناس اسرار ، وربنا أمر بالستر ، واحنا لا نفضح بعضنا ابدا . لان ده حرام . واحنا لا نعرف مين اللى سمها . ونبلغ سيادتكم علشان العدل ياخد مجراه ، وربنا يرحمها ، كانت بنت طيبة جدا ، وخطيبها ، ابو الفيط المنيسى ، مايعرفشى اللى حصل. واحنا فى خدمة سعادتك . وسبحان من له الدوام .

والسلام ختام .

امضاء

فاعل خير لوجه الله تعالى

قال العمدة :

ـ نكمل التحقيق فى الدوار أحسن .

سار الجميع ، فى مقدمتهم من يحمل الكلوب . الاقدام تصافح الظلال على الارض ، الظلال تطول وتقصر وتنثني وتتماوج فى ليونة حسب اهتزازات الكلوب فى يد حامله . والعتمة تبتلع كل شيء . عندما دخلوا البلد . الدهشة فى العيون ، الانبهار على كل الوجوه. شيء مثير نادر الحدوث ، يخــرج الناس ، هنا من دائرة المألوف والعادى والمكرور كل يوم . الهمس يتحول الى كلمات . الكلمات تصبح قصصا وحكايا لليالى الطوال القادمة ، والسهر حتى بعد منتصف الليل فى عشة تعلب . عبد الستار لا يدرى حقيقة مايحدث حوله ، امامه غفير ، خلفه غفير آخر ، كل من فى دميسنا يتحدث عن صابرين . الرجل الذى قتل ابنته .

ـ لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

فى دوار العمدة ، وقف امام المأمور ، آلاف العيــون تنغــرس نظراتها الحادة فى جسمه ، تخترقه .

ـ ومثل أمامنا المتهم ، طويل ، عريض ، قمحى اللون . وسألناه بالآتى فأجاب . اسمك ، سنك ، عملك ، عنوانك ، أقرب الاقارب اليك ، هل لك أعداء فى العزبة ، هل لك اعداء فى دميسنا ، من الذى تتهمه بقتل صابرين . لا يدرى كيف أجاب ، المأمور جالس ، الكاتب يكتب كل شيء . عندما كانت تتوه منه الكلمات ، لا يرد . فان المأمور كان يملى على الكاتب : صمت ولم يرد : فتح المحضر بمعرفتنا نحن . الكلوب يدفع الى الدوار بنور باهت وحرارة لاتطاق العيون تأكله ، تحدق فيه ، تفضحه ، تعريه ، تعرف حقيقة كل شيء ، ترميه بالعبط والجنون . وهو واقف كالمصلوب ،ساعتها، أحس بالحنين لاولئك الذين يسرقون المحصول ، ويحرقون القمح ويسمون المواشى ، ويقلعون القطن الصغير ، التحقيق حــرب لا هرادة فيها .

ـ ثبت من تقرير الطبيب الشرعى ، أن الوفاة قد حدثت بنتيجة التحقيق مباراة هو الخاسر فيها .

ـ أنت متهم بقتل ابنتك صابرين ، فما قولك فى ذلك ، هيه . رد .

ود ان يبكى ، أن يشرب هزيمته ، ان يعلن ضياعه .

ـ والله العظيم ماحصل ياسعادة المأمور .

احس انه متعب ، مع انه يسهر فى كل ليلة حتى الصباح .

ـ التهمة ثابتة عليك يا عبد الستار . قلت ايه .؟

أدرك انه يتهاوى ، يغوص حتى الاعماق . كل شيء يضيع ، يتلاشى ، يتوه . فكر ، لا يدرى لم ، فى العزبة ، والجنيهات الثلاث فى أول كل شهر . يذهب بهاالىالمنزل . يعطيها لستهم ، تذهب الى دكان ابو الفتوح ، تحاسبه ، تعود بالباقى معها .

ـ وفاضل معانا يا عبد الستار ياخويا جنيه وسبع برايز ونص .

تناهى اليه :

ـ يا عبد الستار انت لازم تعترف .

لم يرد ، راح يفكر . وكيل النيابة يقترب منه ، يضع يده على كتفه :

ـ شوف يا عبد الستار ، انت خايف ليه ، انت برىء ، المهم دافع عن نفسك ، المتهم برىء حتى تثبت اداتنه ، الصمت دا فى حد ذاته تهمة .

ـ ايه اللى خلاك عملت كدا .

كان العمدة هو المتحدث . الستر نعمة ، والفضيحة تحدق به من خلال العيون التى تحيط به . فى الغد ، تعرف العزبة الخبر ، يطير بعدها الى العزب المجاورة ، ويصبح عبد الستار بعدها حكاية تروى فى الليالى السود .

ـ السكوت دا مش من مصلحتك يا ابنى اتكلم احسن

احس بجفاف فى حلقه :

ـ يعنى حا أقول ايه يا سعادة المأمور ، ربنا ما يحكم عليكم ، ربنا يسترك ، ربنا يستركوا كلكوا يا جماعة .

مصمصة شفاه ، كلمات رثاء ، نظرات اشفاق تمزقه . مسح أركان الدوار الاربعة بنظرة حانية . مصطبة متآكلة . بنادق علاها الصدأ . مكتب قديم أسندت قوائمه بقوالب الطوب . عدة الشاى ، جوزة اندلقت مباهها الصفراء تحتها على الارض ، آخر غابة الجوزة مدفون فى التراب الممزوج بالطين ، على المصاطب الاربع حصر صغيرة ، تحت المأمور والعمدة والدكتور ووكيل النيابة فروة جديدة ، على نور الكلوب الباهت تحيا الرسوم الصغيرة على الحيطان ، الكتابات العرجاء ، الالوان الحزينة . الكاتب وشيخ الغفر والغفراء

وشيخ البلد ويملأون الدوار . البياض على جدران الدوار تأكل من أكثر من موضع . تذكر الادهم على جدران وسط داره . حكمو عليه ينحبس وحده فى زنزانة ، قام انفرد وانثنى ما همه زنزانة . وقع حيطانها وهرب والبحث جارى عليه . تمنى ان يقرأ المكتوب على هذه الجدران :

ـ أنا باديلك آخر فرصة يا عبد الستار .

نظر الى المأمور . ماحدث لا يقال فى كلمات ياسيدى . لا أقدر على حكايته . اعفنى من ذلك . لا . لا استطيع . يرحمها الله . أنا أقتل ابنتى صابرين ؟ . جزاك الله كل خير . انا أفعلها ؟. لا حرام عليك . عبد الستار يقتل ابنته . عبد الستار يغسل عاره بيديه ، دون علم أحد ، رجل ولا كل الرجال . تلك بطولة لا ادعيها ، وشرف لا أستحقه . أيامنا ليست أيام رجال . اين أيام الادهم وزهران الرفاعى والزناتى خليفة . أيامنا أيام جوع ، أيام تحاريق وقحط .

احرس العزبة منذ سنوات . لم يأت الى العزبة من يسرق ، يحرق ، يسمم ، يقلع الزرع . مع كل مرة يسقط الظلام ، أتوقع حدوث شيء ، مع كل هبة ريح ، نبحة كلب ، همسة شوق ملتاع ، اتوقع حدوث شيء . ولكن الليل يمضى ، والنهار يأتى ، القمر يشرق ، يتوه وسط السحاب الداكن ، تبزغ الشمس ، تعبر السماء فى بطء ، ولا شيء يحدث .

أنا عبد الستار ، لست بطلا . انقضت تلك الايام . ذهب معها رجالها ، لست رجلا . لم أقتلها . أقسم لكم لم أفعل اى شيء ، ماتت صابرين موتة ربها .

ـ اتكلم ياعبد الستار احسن لك . كل الأدلة ضدك .

أين الايام الخوالى ؟. التماعة الشوق تبرق وسط الظلمة فى كل العيون ، وهى تسمع حكايا عن رجال حقيقيين . يتزوج الرجل مائة امرأة ، يفعل كل مايحلو له . يأكل حتى يقف على اظافره . يعمل كثيرا . ينطح السماء برأسه . يحطم الارض بقدميه . يرفع السماء على جبهته . يحضر ولادة الشمس فى الشرق . يدفنها فى الغرب ، رجال حقيقيون . ولكن اين هم . لا شيء . حكايا الليل الاسود . الدهشة على الوجوه ، الشوق فى العيون . الحسرة على مافات . العتاب على الزمان . ولا شيء .

ابتسم عبد الستار فى بلاهة . لم يرد ، تحقيق من نوع غريب ، الحيرة ترتسم على الوجوه ، عبد الستار لا يقول اى شىء .

ــ خده يا عسكرى ع الحجز .

اخذوه . القيد الحديدى فى يده . البندقية فى كتفه، الطلقات العشر فى جيب الصديرى الداخلى . ولما قالوا له يا ادهم ليه قتلت ليه ، قال : وانتوا لما انقتل عمى عملتو ايه .

عبد الستار يجلس داخل البوكس فورد المعتم . والبوكس فورد متجه الى العزبة . غير ان عبد الستار يتساءل : ولم العزبة بالذات . انه مستعد للذهاب الى اى مكان آخر . ولكن العزبة . لا . لا . لم يرد عليه احد . نظر الى ظل البوكس على الطريق الزراعى المترب ، نظر الى العلامات التى يتركها البوكس على الطريق . لاتتوه معالمها الا بعد مرور وقت ، تعبر فوقها آلاف الاقدام المفرطحة التى لم تعرف شكل الحذاء ، خف جمل ، حافر حمار ، طريق ملتو لثعبان كبير عبر الجسر الى الناحية الاخرى ، روث بهائم ، بيد ان علامات كاوتش البوكس تظل بعد ذلك كما هى :

على راس الجسر ، عند مدخل العزبة ، وقف البوكس . نزل المأمور ، العمدة ، شيخ البلد ، شيخ الغفر ، وكيل النيابة . فى لحظة واحدة ، خرج كل من فى العزبة ، على الوجوه بقايا نوم ، دهشة ، خوف مفاجىء ، حب استطلاع . أدركوا كل شىء دونما عذاب الكلمات . عبد الستار يسير كالتائه . يتجه المأمور الى بيته ، فى آخر العزبة . يرسل المأمور من يخبر الحاج هبة الله المنيسى بحضورهم .

فتحت ستهم الباب ، احتوتهم بنظرة حزينة . خبطت على صدرها :

ــ ما لك يا عبد الستار .

لم يرد عليها . دخلوا . الزناتى فى نفس مكانه . نفس جلسته . اللمبة الجاز ترسل الاشعة الباهتة الصفراء وسط الدار .

ــ بمعرفتنا نحن مأمور ايتاى البارود بحيرة ، العقيد . وبحضور كل من السادة ، وبناء على الامر المستصدر من السيد وكيل النيابة ، قمنا بناحية . بتفتيش منزل المدعو عبد الستار المسلوب وكان ذلك فى الساعة .

فتشوا المنزل ، حجرة المعاش ، الحجرة التى ينامون بها ،

المندرة ، وسط الدار ، اقراص الجلة ، مزود الجاموسة ، بطن الفرن تراب الكانون اخذوا الزناتى . كان الحاج هبة الله المنيسى . فى هذه الاثناء ، قد وصل ، سليم ، رحب .

ــ العزبة نورت .

اخرج علبة سجائره ، رمى عبد الستار بنظرة تطلب أشياء كثيرة ، وكل شيء بثمنه .

ــ احنا زارنا النبى ياسعادة المامور .

حتى عبد الستار كانت من نصيبه سيجارة ، لم يدخنها ، تنازل عنها لاحد الفقراء .

ــ معلهش يا حاج دى مجرد اجراءات .

زوجته ، ستهم ، أم أولاده ، تغلق الباب بالضبة والمفتاح . صرير الباب وهو يغلق ، يعلن على الجميع النهاية ، الختام ، أبواب المنازل لا تغلق هنا الا بالليل ، طوال النهار وجزء من أول الليل وهى مفتوحة . الداخل لا يطرق الباب ، فقط يقف على عتبته . يتنحنح ، يبسمل ، يصيح بصوت مسموع : يا ساتر . يجيبه صوت من الداخل ، اتفضل ، يدخل .

سيرون فى حوارى العزبة الضيقة . مربعات الضوء معلقة فى الفضاء المعتم . على الجسر ، كان القمر يطل بوجه مخنوق من شدة الحزن . خيل الى عبد الستار أن نوره باهت لحد السواد . يركبون ، يغوصون فى جوف البوكس المعتم . الحاج هبة الله يودعه ، يضغط على كتفه ببطء ضغطة يفهم معناها ، يسير البوكس .

ــ مع السلامة يا عبد الستار .

الايادى تلوح .

ــ مع السلامة يا ستهم .

الدموع فى المآقى .

ــ مع السلامة يا زناتى .

الحنان فى الصدور .

ــ ربنا يرجعكوا بالسلامة .

المرارة فى الحلوق .

ــ مش عايزين حاجة .

استدار عبد الستار ، ظلال أياديهم المرفوعة بالوداع فى الجو

الرمادى تبدو من خلال سحابة الغبار التى يثيرها البوكس خلفهم .
تبدو على الجسر المترب كشواهد القبور . عندما تذكر أنه أعطى البندقية للحاج هبة الله المنيسى حزن حزنا شديدا . غير أنه فرح ؛ الطلقات العشر مازالت فى جيبه ، تؤنس وحشته ، تسليه ، تشهد على ماضيه المجيد . ينظر أمامه . ستهم ، تجلس قبالته . يجلس الزناتى بجوارها ، اكتشف فى هذه اللحظة ، أن ستهم قد كبرت ، تقدم بها العمر . نبش بعينيه بحثا عن الجمال القديم . وجهها مليء بالتجاعيد ، مثقل بالاسى ، مفروش بالخوف من المجهول ، والحسرة على مافات .
فى الليالى الخوالى ، عندما كان ينام الليل على الحقول الندية ، يلف العزبة بصمته وسواده ، يستقر الظلام فى الحارات . منتصف الليل ، تعبر سماء العزبة طائرة كل ليلة . يغلق أبو الفتوح دكانه ، يطفيء الكلوب . عندئذ ، يخطف عبد الستار رجله الى داره . ينقر على الباب ثلاث نقرات . لا تقول مين ، فهى تعرف أنه عبد الستار ، الشوق الملتاع ، الرغبة التى بلا حدود ، ينفتح الباب عن وجه ستهم المشرق وسط الظلام ، تمد يدها ، تأخذ يده بين كفيها . فى المندرة ، يخلع مداسه ، يضع البندقية بعناية على الحصيرة ، ينام على ظهره ينتظر . تغيب ستهم فى الداخل . تخرج من جوف الدار المعتم ، ندية ، رائعة يلبس جلبابا على اللحم ، تناوم الى جواره . يمد يده الخشنة . يرفع ثيابها الثقيلة . يتحسس بأصابعه فخذيها ، اللحم اللين الطرى ، الدافيء . يغرق وجهه فى بحر أنفاسها اللاهثة المملوءة بالحنان والحب . يأخذها فى حضنه ، بالراحة ياستورة . الهمسات التأوهات ، الضحكة التى تقطر صفاء . أنا مش فاضى يابت ، العزبة لوحدها . كل شيء بدون حارس ، الحقول ، سراية الحاج ، مخزن الفلال ، الدوار ، المواشى ، السواقى البعيدة ، التندة ، أهالى العزبة ستهم امتعته هذه الليلة . تنطق عيناها بالشيء الوحيد الصادق وسط هذه الاكاذيب ، تقطر بالشيء الوحيد المتوهج الجميل ، المدهش ، وسط العادى والمألوف ، والمتكرر ، شعرها المنكوش على صدرها وظهرها العارى . الجسد الابيض البض . كتل الشعر الملزوقة على النحر الجميل بحبات العرق الحلوة المذاق . يمسك بيده غدائر الشعر الليلية . ظهرها العارى وقد ظهرت عليه علامات الحصيرة التى ينام عليها . يقوم عبد الستار . يلبس ملابسه ، يحمل بندقيته ، يركب مداسه ، يخرج . فى الترعة ، يغطس غطستين .

يتجول في مملكته : من هناك ، الليل ، العتمة ، السماء الحبلى بالنجوم الشاحبة ، الرياح ، المجهول ، البندقية الميزر ، الطلقات العشر . تلك هي ساعات الكبرياء في حياة عبد الستار .

البوكس يتهادى تحت أشجار الجازورين والكافور المزروعة على جانبي الطريق الزراعي ، الموصل الى ايتاى البارود . مزق الضوء الرمادى تبدو صغيرة متباعدة بين ظلال الاشجار على الجسر الطويل وحدوه . ارتفعت الهمسات . لا اله الا الله . هذا الطريق يعرفه جيدا . لابد أن العزبة مازالت يقظى ساهرة . لن تنام الليل . يحكون ، يتحولون الى جماعات صغيرة . ماتعرفوش اللى حصل . ايه . عبد الستار قتل بنته صابرين . مصمصة الشفاه . ارتفع صوت من داخل البوكس : صلوا ع النبى . عليه الصلاة والسلام .

صابرين ، حبة القلب ، يوم دفنها ، توقف النعش فى منتصف الطريق . همس البعض : دى لازم نفس آثمة . صاح عبد الستار :

ــ أنا مسامحك ياصابرين . مسامحك يانور عينى .

النعش يتوقف . يقولون بصوت جماعي : لا اله الا الله . مازالت صابرين واقفة . يقولون أن النفس الخاطئة هى التى تخشى لقاء ربها . الحزن يتمدد ويتمطى فى أعماق عبد الستار . الزناتى يغلى ، يثور ، يود أن يحتوى النعش ، يطير به ، يضيع فى المتاهات الغريبة ، صابرين مازالت واقفة : يا ارحم الراحمين . يرتلون الكلمات ، يطبطبون على النعش . مسامحك يابنتى . يقولون مسامحينك ياصابرين . لا يدرى عبد الستار بعد ذلك شيئا .

عينا عبد الستار تلمعان فى الظلمة . همس لنفسه : الستر يارب ، قال أحد العساكر : يا راجل وحد الله ، اعقل . عيون الزناتى تقتحم جوف البوكس فى جراة . يا عبد الستار : انت متهم بقتل صابرين مع سبق الاصرار . حرك أصابعه فى فتور . أخرج رأسه من النافذة الصغيرة . الحقول المترامية الاطراف ، السماء الحبلى بالنجوم . ضوء القمر الرمادى المغسول بالشهد والدموع . الاشجار ، السواقى ، أعمدة التليفون ، البيوت ، كل شيء يجرى الى الخلف .

قال الضابط :

بناء على التحريات المبدئية ، فان كل الملابسات تشير الى احتمال قيام الزناتى ، شقيق القتيلة ، بقتلها . كما هو ثابت من شهادة كل

فلان وفلان . وبالتحديد شهادة أمين مخزن عزبة الحاج هبةالله
...سى .

رمى عبد الستار نظرة الى هناك ، بعيدا ، الى الطريق الذى جرى الى الخلف . كان الطريق الباقى أمامه حتى المركز ، مفروشا الغامض والمبهم والمجهول . عد الايام والليالى . أدرك أن صابرين قد دفنت منذ أربعين يوما . حسب ماله وماعليه . عد الايام الباقية حتى يجىء دور الميه . حسب ماعليه لدكان ابو الفتوح ، مامعه ، ماسوف يتبقى من الماهية . الخمسون جنيها التى اخذها من الحاج هبة الله المنيسى فى ايتاى البارود كما هى ، محفوظة عند ستهم .

فكر عبد الستار انه لم يودع الادهم ، لم يستأذنه ، وأن البندقية قد اخذها منه الحاج هبة الله المنيسى ، وأن راس الجسر خالية الان ، ولا أحد يقف عليه ، وان مملكته بلا ملك ، وأنه ليس بطلا ، وانه لم يقتلها بنفسه ، وان الزناتى اكثر رجولة منه . وأنه ذاهب الان الى مركز ايتاى البارود . وللأدهم ، فى سجن مركز ايتاى البارود ، ذكريات . زنزانة متهدمة . كلمات مكتوبة بنقاط الدم على جدرانه الداخلية . بنادق استولى عليها . رجال يرددون حكايته فى ردهات المركز .

صابرين أصبحت ، فى الاسبوع الماضى ، حديث أهل العزبة ، واهل دميسنا . ذلك أنها ، بعد الدفن . قد انطلقت فى خبء الليالى ، وصمت الحقول ، وقشعريرة الليل ، تعيد صنع حياتها . تشرب احزان العالم ، تضاجع يأسه . تفعل الممكن ، تعانق المستحيل تتجرع طعم المأساة . تحولت صابرين الى اسطورة ، يحكيها الناس هنا . قالوا انهم شاهدوها جالسة تبكى على الساقية البحرية . وان هناك شجرة صغيرة نبتت فى المكان الذى كانت تبكى فيه وسموها شجرة الدموع . وأن عفريت صابرين يبدو فى هيئة امراة منكوشة الشعر ، محمرة العينين ، زائغة النظرات ، تائهة ، حيرى ، تجرى ، تنادى السائرين . تقول : ليه كدا يازناتى ، ليه يازناتى ، ليه ، ليه . ليه . يا خويا . ليه ماسترتش عرضى ليه ، انا اختك ، ليه .

وفى ليلة أخرى ، بدت ريانة العود ، رطبة . وكانت تنادى : انت فين ياصفوت ، تعالى ياصفوت ، ابنك كبر ياصفوت . تعالى نربيه مع بعض ياابن الحاج الكبير . شوهدت صابرين . الى متى

يا عالم . ياسيدنا . يارسول الله . شوهدت على أعالى الاشجار ، معلقة فى الفضاء ، تبتلع النار ، تمشي علي الشوك ، تركب حصانا أبيض ، يطير ، يطير ، يهبط فجاة ، يخترق كل شيء . شــوهدت واقفة على ذؤابات الاشجار ، أعالى النخيل . اصبحت خلال الايام الماضية كل شيء ، واصبح الليل ، رحلة مع المجهول ، محــاولة للبحث عن صابرين .

ولكن عبد الستار رفض ان يصدق . الى ان كانت ليلة لا ينساها عبد الستار أبدا . القمر ينسحب على حائط السماء مخنـوقا ، وكان الليل مساحة غير محدودة من العتمة . عبد الستار يقف خلف مخزن التبن . فجأة ، يشاهد مالا تصدقه عيناه ، فرحا بأكمله ، غناء ، طبولا ، زمرا . العررسة صابرين . غير ان العريس ليس أبو الغيط « وكان قد كتب علبها منذ خمس سنوات كاملة ، بيد ان الدخول قد أجل لاسباب مالية » . العريس هو صفوت المنيسي . ابن الحاج الكبير ، راقصة ترقص ، مغن يغنى . من فوق شواشي الدرة . قمرية بتغنى . صابرين تضحك ، تبتسم . الجــدعان أبو الفتوح ، أبو الفتوح ، البقال ، أنا وانت . دقى يا مزيــكة . عبد الستار يجرى نحو الفرح . ياليل الحيارى ياليل . الفـــرح يجرى أمامه ، عابرا الترعة ، الجسر ، الحقول البعيدة . يصــعد الفرح فى السماء ، يتلاشى فى الفضاء الحزين .

أخيرا ، بدت ايتاى البارود . وقف البوكس أمام المركز . نزلوا . وقفوا صفين حتى باب المركز . سقف الشارع المعتم مزروع باللمبات الشاحبة ، نزل عبد الستار القيد الحديدى فى يده ، أمامه جندى ، خلفه ستهم ، خلف ستهم الزناتى ، من خلف الجميع بدا جـوف البوكس المعتم ، كفوهة قبر . بأقدام تجر الاحذية الثقال ســاروا جميعا بخطى ثقيلة . الف عين تخترق جلد عبد الستار ، تسرى فى عظامه . يسير ببطء ، دخل المركز .

عندما جلس فى الحجز ، نظر الى الجدران الاربعة ، الارض المبلطة ، السقف الواطيء ، الظلام الكثيف . صوت الحارس الليلى ، اصطدام قدميه بالاسفلت فى وقع رتيب ممل . مزقة صغيرة من الضوء آتية من الشارع تنعكس على سطح الغــرفة الضيقة . صوت اصطدام ملعقة بالارض فى المنزل المقابل . رجل ينادى على بضاعته . همس فتى وفتاة يسيران ببطء على الرصيف المقابل ، كلمات بالغة .

ن درجات الوجد ، الاقدام تقترب ، تبتعد ، ولكنها دائما رتيبة ، رة .

هنا ، فى هذه الزنزانة ، ينتصب العالم تجاه عبد الستار ، ب عملاقا ، ولكنه أعزل ، مسكين . حتى الزناتى ، عيناه مساحة رية من البياض الثلجى . كل شىء يغتال عبد الستار ، يقتله ، ض عليه . رجل يتلو آيات من القرآن الكريم . وكل نفس ذائقة ت . الصوت يرتل ترتيلا شجيا . يبعث فى نفسه بأسى أملس.

عبد الستار أمامه ، فوجىء بالزناتى ، عيناه كبركتين ساكنتين الحبر الاسود . فوجىء أيضا بالجدران عالية ، والسقف عريض، ظلام عميق . عندئذ ، أدرك عبد الستار أن الحزن قد استقر فى ته حتى النخاع .

الرضوخ

الثلاثاء ١٣ من سبتمبر ١٩٦٦

ظهر يوم حار .

الحقول المترامية الاطراف ، لحظة الظهرية . الشمس فى كبد السماء ، تتوه نظرات الانسان فى أركان الكون الاربعة ، لتغير معالم الاشياء ، تكتسب ألوانا غير الوانها الاصلية . تفرض لحظة الظهيرة نفسها على كل شيء ، توهم الانسان بوجود أشياء كثيرة ، لا وجود لها فى الحقول البعيدة ، تنحنى شجرة الجازورين ، تتقوس شجرة الكافور ، الصفصافة تموت ببطء . أشياء كثيرة تتحرك ، أو هكذا يتصور الناظر ، أرض تصعد ، ارض تهبط ، الحقول تدور فى بلادة ، برج الحمام العالى يقدح الشرر . تمتص الحرارة كل شيء ، حتى الاصوات ، يتكسر الصوت على المدى البعيد ، تتحول خضرة النباتات الى لون رمادي جاف . ينطلق صدى الصوت ، بعيدا . الحرارة والقيظ أعمدة تثقل كاهل الانسان فى كل لحظة تمر ، فضاء الصمت الحقولى يحيط بالعزبة من كل جانب ، تظلله سحابات الاسى ، تزيد من كثافته ، تعمقه . الحقول البعيدة ، الرمادية ، الكابية ، مسقوفة بقبة من القيظ والصمت .

فى هذه اللحظة ، من كل يوم ، ساعة القيلولة ، وحدة الظهيرة يأتى الاتوبيس القادم من كفر الزيات ، والذاهب الى شبراخيت ، لا يعرفون لحظة قدومه بالتحديد ، ولكن مجيئه يعنى أن لحظة القيلولة قد حلت ، يعنى أنهم سيتركون العمل لوقت قصير . يعلن عن قدوم الاتوبيس سحابات الغبار التى تتحرك على الجسر العريض بسرعة وبكثافة . يصل الاتوبيس . عند رأس الجسر تماما ، يتوقف بهدوء ، لونه أزرق فاتح ، نصفه الاعلى لونه اصفر ، يقف .

سحابات الغبار المنعقدة تتهادى ببطء الى الامام ، تستقر ، بعد قليل ، على ذؤابات الاشجار ، أعالى الزروع ، البيوت المنهكة من شدة الحر . تستقر أيضا فى قيعان القنوات الجافة .

قدوم الاتوبيس المدون عليه من الامام بخط جميل . دمنهور ، شبراخيت ، كفر الزيات ، يعنى بالنسبة لكل من فى العزبة ، ان

اليوم قد انتصف تماما « بيد أنهم يعرفون ذلك بأن يقف الرجل ، ويحاول أن يرى ظله ، وعندما لا يرى له ظلا يدرك انها لحظة الظهيرة » .

ومعني ذلك أن مساحات الظلال تقل ، تضيع ، تتلاشى . والقيلولة ليست ساعة زمن ، هي وقت يستريحون فيه من عناء العمل ، يأكلون فى الخلاء ، على المصارف ، مدارات السواقى العالية تحت اشجار التوت والجميز والصفصاف فى كل مساحات الظل . الصغيرة .

لا يذكر احد منهم ، أن مسافرا نزل من الاتوبيس ، أو ركب فيه منذ زمن مضي . لا يذكرون الا انه بعد أن يتوقف ، وبعد أن تستقر سحابات الغبار ، تطل من داخله ، وجوه كثيرة ، حلوة ، مزوقة ولكن الغبار يعلوها . تطل بدهشة . تعود ، بعد قليل ، الى جلستها المعتادة . يستأنف الاتوبيس سيره . يسمعون ثرثرة تأتى من داخل الاتوبيس ، تختلط مع صوت المحرك .

ـ بلد ايه دى .

يرد عليه صوت آخر بدون اهتمام .

ـ دى عزبة صغيرة .. اسمها ياسيدى . آه . افتكرت عزبة الحاج هبة الله المنيسى .

شخص واحد ، يسافر عادة الى الاسكندرية . يركب هذا الاتوبيس الى دمنهور ، ويكمل بعد ذلك سفره ، هو صفوت ابن الحاج هبة الله المنيسى . يسافر فى بداية العام الدراسى ، كل سنة يعود فى آخره « يلاحظون هنا انه لا يحضر فى الاعياد والمواسم ويقولون ان الست الكبيرة فى أيام الاعياد والمواسم ينفطر قلبها من البكاء ، لا تقرب الطعام مهما كان » .

اما الحاج هبة الله المنيسى ، فانه فى سفره لا يركب الاتوبيس ، تحضر اليه سيارة اجرة خضراء اللون ، من تكلا العنب ، يركبها بمفرده فى المقعد الخلفى ، ويدفع فى كل مرة مبلغا وقدره « ويقول أهل الناحية أن الحاج هبة الله المنيسى يستطيع أن يشترى سيارة جميلة ولكنه يخشى الحسد ويخاف عيون الناس » .

يقف الاتوبيس . ينزل السائق ، عند المصلى ، بالتحديد عند المنزل ، المكان الذى يتوضأ فيه أهل العزبة قبل كل صلاة . ينزل الى الماء . يملأ جردلا يكون معه بالماء . يعود الى السيارة ، فيفتحها

من الامام ، يندفع بخار أبيض ساخن بشدة . تنساب المياه الباردة فى جوف السيارة المشتعل . يسير السائق قليلا على شاطىء المصرف القريب . يجلس ، يقضى حاجته . يعود الى الاتوبيس . رويدا ، رويدا ، يتحرك الاتوبيس . يتكاثف الغبار . شيئا فشيئا ، يتوه الاتوبيس وسط الاشجار العالية . لا يتناهى اليهم الا ازيز المحركات صوت المطبات على الطريق .

بيد أن أهل العزبة لا يذكرون سوى صفير السيارة ، صفارة مشروخة لا يطلقها السائق الا قبيل الوصول الى قرية دميسنا ؛ تتناهى اليهم وسط القيظ والحرارة ، كسلى ، مرهقة ، حزينة ، تشد نفوسهم المتعبة ، قلوبهم المثقلة بالاعياء نحو طريق مبهم لايدرى اكثرهم الى أين يصل بهم . صفير السيارة يأتى اليهم ، كل يوم ، فى لحظة القيلولة ، لا يثير فى النفوس سوى التشوق لكل ما هو مجهول وغامض فى الحياة . عندئذ تدغدغ النفوس رغبة حزينة فى الذهاب الى ايتاى البارود أو دمنهور ، أو ربما الاسكندرية ، تحلم كل القلوب بلحظة ، قد تأتى مع الايام القادمة ، يركبون فيها هذا الاتوبيس ، تهدهدهم كراسيه اللينة ، تملأ خياشيمهم رائحة التراب والخشب والبنزين ، يتمتعون بمنظر الحقول التى تجرى الى الخلف .

بعد قليل ، يتناهى اليهم ، فى عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، صوت الاتوبيس ، وهو يتحرك من دميسنا قاصدا كفر عوانه . الصفير الحزين الشاحب ، سحابات الغبار على المدى البعيد ، كل شىء يتلاشى ، يبتلعه الصمت الجاف الاخرس . يعود الصمت الحقولى فيغتال كل الاصوات المتعبة .

ـ ياولد هات الغدا . والجوزة كمان . واوعى تنسى السكر والشاى والعسل .

بيد أن هناك صوتا متميزا ، تألفه كل الاذان ، ينبعث من سراية الحاج هبة الله المنيسى . كان هذا هو الموجز واليكم انباءنا بالتفصيل من القاهرة . كلمات كالمتاهات الغريبة ، أسماء كالطلاسم والرموز ، أحداث لا يدرون عنها اى شىء .

فى هذه اللحظة ، من كل يوم ، دكان ابو الفتوح مردود الابواب ، وهو يجلس فى داخله فى كسل وفتور ، بداخله طنين الذباب وانعكاسات الضوء . المواشى فى مساحات الظل الصغيرة ، الباهتة

تجتر ، وهى بين النوم واليقظة ما أكلته صباح اليوم . تملأ المزاود بالعليق . تسحب المواشى ، بعد ذلك ، الى المنزل القريب « المنزل مكان منحدر يصل الجسر العالى بالترعة الفويطة . بانحدار قريب من شكل السلم ، غير أنه بلا درجات » تنزل المواشى كى تشرب ، وربما تستحم .

لحظة الظهيرة ، من كل يوم ، فى عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، تزرع النفوس برغبات غامضة ، تفرش زوايا النفوس بأشياء قد تتوه فى ساعات العمل وقت العصارى . ولكن أثرها يظل فى النفوس كالندوب والجراح .

فى لحظة الظهيرة ، يجلسون فى مساحات الظل المتآكلة ، يتحدثون بصوت هامس ، يحكون ، يقولون مايثقل الفؤاد بالهموم ، يضحكون ضحكات مبتورة خافتة .

ـ قليل البخت يتكعبل فى الصديرى .

ضحكاتهم موشاة بالخوف من كل ماقد تجىء به الايام والليالى ، يضحكون من أعماق قلوبهم . فجأة ، يتوقفون عن الضحك ، يقول أحدهم لنفسه . اللهم اجعله خيرا .

ـ اما البنت صابرين دى حلوة بشكل .

يستمعون باهتمام .

ـ يدى الحلق للى بلا ودان .

فى مثل هذه الايام ، شهر سبتمبر من كل عام ، فراغ سبتمبر العذب . زرقة السماء الصافية ، موسم جنى القطن ، وقطع عيدان الذرة المثقلة بالكيزان . من المؤكد أن القطن والذرة يكونان مغطيين بذرات الغبار السوداء . تزداد كثافة كلما اقتربنا من الجسر العالى، وتقل كلما ابتعدنا عن الجسر . جنى القطن يعنى ارتفاع أجرة النفر « ترتفع اليومية من ستة قروش وتصل بالتدريج حتى العشرين قرشا . بيد أنها تهبط مرة أخرى بالتدريج حتى تصل الى ماكانت عليه » .

فى لحظة الغروب ، عندما تبدأ ظلال الغسق فى الهبوط ، وهى اللحظة التى تسبق سقوط الليل . يسير فى حوارى العزبة من ينادى . واليومية بستة صاغ ، والقبض آخر الاسبوع ، والحاضر يعلن الغايب . واخر الاسبوع هو مساء يوم الجمعة ، ليلة يوم

السوق . فى نفس اللحظة ، كل مساء ، ينطلق فى حوارى دميسنا من يطلق نفس النداء ، غالبا مايكون مقاول الانفار .

قدوم موسم جنى القطن ، يعنى الانتعاش فى كل شىء . فى عزبة الحاج هبة الله المنيسي ، امام دكان ابو الفتوح ، فى الجزء الارل من الليل ، فى سوق يوم السبت من كل أسبوع . يحسب مقاول الانفار حساباته كل ليلة ، على ضوء لمبة نمرة عشرة ، تكثر الافراح والليالى الملاح ، في أعماق الليل ، تأتى مع الرياح ، ياليل ياعين من ميكروفونات بعيدة . يأتى الصوت ، تبعثره الرياح فى جنبات الكون الاربع . فيك ناس يا ليل يشكولك مواجعهم . ينصت عبد الستار . يتحسس الصوت القادم ، يدرك اتجاهه ، مدى بعده عن العزبة :

ــ دا لازم فى الموردة .

يحاول أن يعرف كل مايتصل بالفرح ، العروسة ، العريس ، المهر ، العزال . ولكنه فى آخر الليل ، عندما يتناهى اليه هذا الصوت . استمعتم سيداتى سادتى الى هذا الحفل من فرقة حسب الله ٤٣ شارع النصر بكفر الزيات ، على مكبرات الصوت الجديدة لصاحبها أبو العلا سرور ١٣ شارع الجيش بطنطا ، استعداد كامل لاقامة الافراح . عندئذ ، تذعذع عبد الستار رغبة حزينة ، ربما لستهم ، ربما لان يجد الزناتى عريسا ذات يوم . ربما ايضا أن يسعد الله صابرين ، ويدخل عليها أبو الغيط المنيسى . كتب عليها منذ أربعة سنوات بالتمام والكمال . ولكن ما باليد حيلة .

فى مثل هذه الايام ، يضاعف عبد الستار من يقظته . فى الصباح ، يخرج الانفار من بيوتهم ، يلبس كل منهم جلبابا واسعا ، يربطه بحزام عند الوسط ، يجمع القطن ، يضعه فى عبه . فى الصباح ، وتراب الارض مبلل بالندى والدموع ، يمسك كل فرد خطه ، بعض الكبار يمسك خطين ، ويأخذ فى آخر النهار يوميتين . يبدأون العمل اليومى ، والشمس تخرج من جوف الافق الشرقى .

ــ خلى بالك انت وهوه م النضافة .

يقولها الخولى بطريقة آلية .

فى أيام جنى القطن من كل عام ، يكثر الذهاب الى دميسنا ليلا ، مع طراوة لحظة المساء الندية . يتغير الطعام فى الحقول

الواسعة ، يأكلون السردين ، السمك ، اللحوم . أحيانا تخرج الفتيات الصغار ، يحملن صوانى من النحاس اللامع ، فوقها أوان يتصاعد منها البخار ، فيها كما يقول الانفار ، المحمر والمشمر . يشربون الشاى ثلاث أدوار كاملة ، يدخنون الجوزة ، يغيرون مياهها الصفراء اكثر من مرة من مياه المصرف .

هنا ، فى التندة الواقعة أمام العزبة مباشرة ، يكون مفرش كبير . يحضر الفراز كل صباح ، حيث يقوم بعمله . يعبون القطن فى أكياس كبيرة . فى آخر النهار أمام التندة ، يوزن القطن :

ـ أيوة ياسيدى ، قنطارين وأربعتاشر رطل .

عندما يوغل الليل فى صمته ، وتزداد كثافة سواده ، تحضر السيارات ، انوارها تبدد وحشة الليل ، سحابات الغبار من خلفها تزيد من مساحات الظلام . تحمل عليها الاكياس . هيلا هوب . تخرج السيارات ببطء . تئن تحت الاحمال الثقيلة ، بين الحين والآخر ، فى النهار ، فى أعماق الليل ، ساعة الفجر ، يخرج من منزل الحاج هبة الله المنيسى عبد الستار يحمل صينية مغطاة بمفرش ابيض عليها ما لذ وطاب ، يكون الطعام للسائق ، العتالين ، الفراز ، القبانى . يأكلون . يشربون الشاى .

فى موسم جنى القطن ، من كل عام ، تنفذ كل الوعود المؤجلة . تبنى المنازل ، يتحول موسم جنيه الى سرور تأتى به المصادفات ، لا يحدث الا مرة واحدة كل عام . فى المساء يعود الانفار ، ملابسهم تتعلق بها نتف من القطن الابيض . معهم ، فى مناديل مخططة باهتة الاوان ، بقايا اكلهم . تحمل احداهن جرة فارغة ، الجوزة ، عدة الشاى . يغنون ، يعلنون حزنهم . دائما ، كانت صابرين ، فى كل موسم هى التى تحدو ، يرد عليها الجميع فى ايقاع رتيب مكرور . لكنهم هنا لا يملونه ابدا . غناء حزين ، تشم فيه خصوبة الارض ، رائحة الليل المقبل ، خضرة النباتات الواسعة ، حبات الندى ساعة الفجر ، تراب الجسر المبلل بالندى لحظة الشروق . يخرج الغناء ابديا ، حلوا ، كأنه صوت الزمان الطويل . يحسبون ما معهم ، تنسال الاحلام تفرش الطريق نحو العزبة بالاشياء الرائعة . يصلون الى العزبة ، يتفرقون فى الحارات الضيقة .

ـ بكرة بدروا شوية يا أولاد . البركة فى البكور .

عندما ينطلق صوت الخولى بهذه الكلمات ، تكون ظلال الفستق ،

ذرات الظلال قد سقطت ، نسمات أول الليل قد هبت . تلف العزبة بقشرة رقيقة من الوهم . عنــدئذ ترتمى العزبة تحت أقدام الليل المقبل .

أما فى الصباح الباكر ، فى لحظة انبلاج الفجر ، والنجـــوم مازالت مبعثرة على صفحة السماء ، ينطفىء بريقها اللامع مع أول أضواء اليوم ، ولون الفضاء رمادى حزين . يخرج الرجال ، فى يد كل منهم عواقة صغيرة . يقطعون عيدان الذرة الجافة . تتســاقط حبات الندى الطرية على الارض . تحيلها الى طين بارد . تكوم عيدان الذرة فى أكوام عالية . تعلم الكيمان بعلامات مميزة خـوفا مـن السرقة ، رغم أن الكل يشـق فى عبد الستار وبندقيتــه وطلقـاته العشر ، يبدأون بعد ذلك فى قلب الارض وحرثها ، تتحول الى لون أســود داكن . مثقل بالخصوبة والنماء استعدادا للزرعــة الجديدة .

أكياس القطن نائمة أمام التندة ، مكتوب عليها بمداد أخضر ، وبخط متعرج باهت اللون ، الحاج هبة الله المنيسى ، مدون أيضا نوع القطن ، الفئة ، الميزان ، عام الجنى ، فى الليل ، يجلسون على هذه الاكياس ، يحكون الحكايا ، لايدخنون السجائر خوفا من أن يحترق القطن . فى موسم جنى القطن من كل عام ، تمتلىء الايادى بأوراق النقد الجديدة الخضراء والتى لها رائحة مميزة ومحببة الى كل النفوس « تتحول هذه النقود ، ومع مرور الوقت ، الى أوراق بالفة القدم ، متهرئة ، متآكلة الاطراف ، ملزوقة من المنتصف ، بأوراق لزق صفراء ، بلا معالم ، يصعب قراءة ماكتب عليها » . تنتفخ المحافظ . تمتلىء الحياة بلحظات الكبرياء النادرة . ينمو الحب بين القلوب الشابة . تكثر لحظات الاقبال على الحياة .

فى هذه اللحظة ، وحــــدة الظهيرة . يتراءى للأنفار الذين يستريحون على طول الجسر ، أمام العزبة ، سى صفوت . يقولون : ياسلام ع العز يا أولاد . يده على خده ، على عينيه نظارة ســوداء « يقولون أن ثمنها عشرة جنيهات كاملة ، والعشرة جنيهات تعنى بالنسبة لهم ايجار نصف فدان أرض لمدة سنة كاملة ، بما فى ذلك الضرائب والرشوة والهدايا وخلافه » . يرتدى صــفوت جلبــابا أبيض ، يقولون عن قماشه أن اسمه رمش العين ، وأنه يظهر ما تحته بوضوح . فى قدميه شبشب لم يرو مثله .. صفوت يسافر فى

شهر سبتمبر من كل عام الى الاسكندرية . صفوت يعود الى العزبة مع اول العطلة الصيفية . صفوت ترد له خطابات من بلاد بعيدة . ملزوقة ، مكتوب عليها من الخارج : الاستاذ صفوت المنيسى . دميسنا ــ بحيرة . مكتب بريد نكلا العنب ، عزبة الحاج هبة الله المنيسى . يحضر له أحد الانفار من كفر عوانة الجرائد والمجلات فى العاشرة من صباح كل يوم . يمر هذا النفر على الجالسين على الجسر ينزل من على حماره ، يفتحون المجلات . يبلون أصابعهم بريقهم . يتصفحونها بالمقلوب ، تبدو على الوجوه اقصى درجات الدهشة والانبهار . تتحول هذه الصفحات الملونة ، خاصة المرسوم فيها نساء جميلات ، الى تصاوير ملزوقة ، أو مدقوق فيها مسامير متعرجة على جدران قاعاتهم الضيقة ، يحصلون عليها من السراية بشتى الوسائل .

يقولون عن صفوت : تعرفوا انه مخاوى بنت من الاسكندرية . مصمصة شفاة . ابوه ياسيدى بنت خواجاية . الاسى فى الصدور . عيونها فى مثل زرقة السماء ، شعرها أصفر مثل عيدان القمح وقت الحصاد ، بيضاء ، بضة . صفوت ، فى مثل هذا الوقت ، من كل يوم ، يقف على راس الجسر ، ساهما مفكرا ، والشمس فى كبد السماء .

لكنه اليوم لم يخرج الى راس الجسر . كان صفوت فى لحظة القيلولة يتقلب فى فراشه الوثير ، فى حجرته الصغيرة التى تطل على الناحية البحرية . على نافذتها ، شجرة عنب خضراء يانعة ، بين وريقات العنب ، فنة سلولة . تقلب صفوت فى فراشه ، اعتدل ، استوى جالسا . من خلال أوراق العنب ، راى مدخل العزبة . رمى نظرته الى الدوار الكبير أمام العزبة . اطلت من داخل الدوار العتمة ، فى هذا الدوار بالداخل ، يوجد مخزن التبن ، وحجرة كبيرة توضع فيها أشياء يحتاجها العمل فى الحقل ، فى مقابلها حجرة أخرى فيها أشياء يحتاجها منزل الحاج هبة الله المنيسى ، مفتاحها مع الست الكبيرة ، أم صفوت .

استدار بعينيه الى الحقول ، وفكر ، فى مثل هذه اللحظة من كل يوم ، ساعة القيلولة ، آلاف العيون تحاصر منزلهم ، تحيط به من كل جانب ، كلمات الاعجاب والانبهار والدهشة . الحكايا الغريبة عنه ، وعن الاسكندرية ، البحر البعيد الواسع ، بحر

بلا شطآن . تقال عنه ، وعن أبيه ، فى جلسات القيلولة كلمات بالغة الغرابة .

لكنه وحده ، يدرك أن له حزنه الخاص ، المه . فى أعماق نفسه منطقة غريبة مجهولة ، ينزوى فيها هذا الشىء المبهم . لايرتد اليه لا يعايشه ، الا فى لحظات نادرة ، فقيرة . ربما فى لحظة الغروب الحزينة ، لحظة سقوط الليل على العزبة . فى تلك السويعات النادرة ، يستشعر رغبة ملساء ناعمة فى البكاء ، البكاء الى أن تجف أنهار العالم . فى قلبه فراغ مخيف ، فى النفس كآبة ، خلف أذنيه وعلى جبهته ، حبات عرق لزجة . بعد أسبوع يسافر الى الاسكندرية ، فشل جديد ، خيبة أمل قادمة فى الطريق ، مازال يذكر . فى نهاية العام الماضى ، موزع البريد ، الخطاب الذى يحمل الختم الاليف ، الاسكندرية ، سفريات ، صادرة فى / / ١٩٦٦ اذا لم يصل يرد الى العنوان الثانى الموضح خلفه .

السيد / ولى امر الطالب

صفوت هبة الله المنيسى

تحية طيبة وبعد :

يؤسفنا ان ننهى اليكم نبأ رسوب نجلكم صفوت ، هذا العام ، كمـــا وأن ادارة الكلية لا يسعها الا ان تتمنى له التوفيق فى الاعوام المقبلة .

وتفضلوا ـ سيادتكم ـ بقبول فائق الاحترام

الاسكندرية فى / / ١٩٦٦

عميد الكلية

يد والده ترتفع بالتحية لموزع البريد
ـ أى خدمة يابا الحاج .
يستأذنه ، يركب دراجته .
ـ كتر خيرك يا ابنى .
ـ طيب السلامو عليكو بقى .

يسيران معا على الجسر المترب ، هبات النسيم تداعب جلباب صفوت ، الحزن بلون ليل الاسكندرية المنطفىء . والده لا يكلمه لا يلتفت اليه . لكنه يستشعر فى الاعماق خجلا وحزنا عظيمين .

ـ أنا متأسف ياوالدى .

خرج صوته مسطحا ، مستطيلا ، باهتا . لم يرد عليه والده . قال له بعد قليل :

ـ انت حر ياصفوت .

شوارع الاسكندرية لا تبالي بشيء ، سيارة تمر بسرعة الى جواره ، فتاة صغيرة تسير على الرصيف المقابل ، بائع ترمس . قال والده :

ـ انت كبرت خلاص . دا مستقبلك .

وقف صفوت فى منتصف الطريق . تثاءب . فكر . الاسكندرية الآن ، البلاجات ، النساء العرايا ، الصدور الناهدة ، مدام سونيا ، مونا ، فيفيان ، مارجريت ، الهام ، الشوارع الخالية ، الانوار الحمراء ، العلامات عند تقاطع الشوارع الرئيسية ، عبور المشاة ، انتظر من فضلك ، خطر ، فتيات منتصف الليل . هذا المساء على مسرح كوته بالازاريطه . مسرحية .

اطل برأسه . نظر الى الحقول الواسعة . شم رائحة الخصوبة والارض . احس أن الخضرة التى امامه لها رائحة معينة ، تنفذ الى خياشيمه ، تشجيه .

يؤسفنا أن ننهى اليكم رسوب نجلكم . كما واننا . انت حر . العزبة الواسعة . الصمت الحقولى . لحظة الظهيرة . السفر الى الاسكندرية .

جلس على سريره ، فى حجرته . يذكر هذا جيدا . يذكر متى رآها أول مرة . يذكر أيضا كم أحبها من قلبه ، آه ، ياالهام . الاسكندرية . شهر ديسمبر .

الهام دافئة ، حلوة . الشوارع شبه خالية . الامواج تتكسر على بلادة الصخور . شارع الكورنيش الطويل . ملهى الكيت كات . سافروا على طائرات شركة ، فى ملهى الامبسادير تقضى أسعد ليالى العمر . رائحة الشواء تأتى اليه . يسير بمفرده . فكر صفوت فى العزبة التى نامت الان ، عدا عبد الستار . همس لنفسه : عبد الستار والد صابرين . صفوت ينظر أمامه ، فتاة حلوة تجلس على رصيف الكورنيش ، بجوارها حقيبة سوداء . بدت له الفتاة تائهة ، حيرى ، تتقيأ ، تضع أصبعها فى فمها . تتقيأ مرة اخرى . حبات العرق على جبينها . جلس الى جوارها ، تسرى فى أعطافه

نشوة التجربة الاولى ، بكارة الشيء الذى تمارسه للمرة الاولى . استندت اليه ، أحضر لها ، من بائع الترمس ، ماء تمضمضت به . أجلسها الى جواره . جلس ، تاهت فى غيبوبة ، برد الشتاء ، حبات مطر خفيف . عندما افاقت قال لها :

ـ انت مالك ياستى .

ردت بدهشة :

ـ انت مين .

ـ أنا صفوت ، صفوت ابن الحاج هبة الله المنيسى .

ضحكت . وقفت . سوت ملابسها . طلبت منه ، بصوت منطفىء أن يوصلها .

ـ العنوان أهه لو سمحت .

فى التاكسى ، جلست الى جواره . فى الشوارع الخالية ، بدا كل شخص وكأنه ينسحب الى داخل ملابسه . مزق الضوء الصغير تسقط عليه ، تتلاشى ، يتوه كل شيء وسط مساحات الظلال الكبيرة . ظل السيارة على أرض الشارع اللامعة يطول ، يطول ، تتلاشى ملامحه . يبدو بعد ذلك واضحا . عندما نظر اليها ، عيونها متهبة ، كتل الشعر الليلية مبعثرة على الجبين المثقل بحبات العرق الباردة . على شفتيها طلاء دسم . قد تكون . لا . لا . ولكنها رغم كل شيء مليئة بالوعود . على باب منزلها . قالت له :

ـ مرسيه قوى .

تحرك دون أن يرد عليها . نادت عليه . اعطته ورقة بها العنوان :

ـ أنا اسمى الهام ياصفوت .

استدارت . شعر برغبة فى البكاء . لا يدرى لم .

عاد الى منزله . جلس على مكتبه . الاشتراكية تعنى بالدرجة الاولى . لا يفهم حقيقة مايقرأ . لا يدرى ما أصابه . ويعد كتاب راس المال لكارل ماركس ـ راسه يكاد ينفجر . اسمى الهام ـ مرسيه . فتح الورقة التى معه ٤٠ شارع النبى دانيال ٤٠ شارع النبى دانيال ٤٠ شارع النبى دانيال ٤٠ شارع النبى دانيال . رغم كل شيء كانت جميلة . لم يسمع عن اسمها فى بلدته . ربما كانت أجمل الاسماء وأقربها الى نفسه صابرين ، بنت عبد الستار.

قد تكون أجمل البنات أيضا . ولكنها فلاحة فى قدميها شقوق كثيرة ولا تغسل وجهها الا نادرا .

أما الهام ، كثيرا ما شعر بالحسد لاولئك الذين كان يشاهدهم فى الشوارع ، فتى وفتاة ، يتأبط ذراعها . يتبعهما بنظراته ، يتساءل عن قصتهما معا ، حبهما ، البطولة الكامنة فى كل منهما : الشيء الخارق ، الغريب ، البالغ حد الروعة .

وفى آخر الليل ، تلك اللحظة الشجية المليئة بالاسى ، الموشاة بالاحزان . كان يدرك ان فى أعماقه شيء ما ، ناقص ، غير مكتمل . ولكنه فى كل مرة ، كان يطوى نفسه على الالم ، الجناح الكسير ، الحزن اللامحدود . اسمى الهام ، أنا صفوت ، صفوت هبة الله المنيسى . الاسكندرية فى منتصف الليل ، تاكسى ، النبى دانيال من فضلك ، حسابك كام .

ـ استنى يا الهام حا أنزلك ، خلى الباقى علشانك .

العنوان فى جيبه فى العام قبل الماضى ، قبل الامتحان بأسبوع انداحت أمام عينيه بشاعة المأساة ، ولكنه تصرف بسرعة .

***

اضطررت لاجراء عملية الزائدة الدودية ، لم أتمكن من حضور الامتحان . معذرة يا أبى ، كانت الزائدة ستنفجر ، مرة أخرى ، معذرة .

ابنكم صفوت

الاسكندرية / / ١٩

ذات أصيل ، فى مخزن التبن ، قال لصابرين :

ـ انت مالك حلوة كدا يابت .

قالت صابرين ، وجفونها مسبلة فى أنوثة ، والشمس تنحدر نحو المغيب :

ـ احنا مش قد المقام ياسى صفوت .

ـ انتى أجمل واحدة فى العالم .

تذكر الهام ، فشعر بالحزن . أحس بجفاف فى حلقه .

ـ دا بس من ذوقك ياسى صفوت .

وبدات ظلال الغسق تهبط .

عندما رسب فى العام الماضى ، قال أحدهم : ياعم هوه محتاج تعليم . لكنه وحده يدرك أحلامه ، يعايشها ، يعانقها فى لحظات

القهر . حتى فى ساعات الأسى ، كثيراً ماتمنى أشياء عظيمة ، كثيراً ما أثقل نفسه فى ليالى السهاد بالوعود . ولكن ما باليد حيلة .

فى بداية العطلة الصيفية ، والايام خالية ، مرة المذاق ، طلب منه والده أن ينزل الى الحقول . حقيقة ، هو لايدرى عن أرضهم اى شىء . كل عطلة يقضيها فى الاكل والنوم والزيارات ، طنطا ، دمنهور ، ايتاى البارود . فى أيام الفراغ والضجر واللامبالاة ، كان يعاكس الفتيات فى العزبة . كثيرات لم يقلن لا ، يتلفتن يمينـا وشمالا ، تصعد عيونهن المرعوشة فى السماء ، تدور فى أركـان الكون الاربعة . مادام ان أحدا لم ير شيئا فلا مانع . صابرين وحدها هى التى صدته ، منعته ، زجرته . عيونها المسبلة ، رموشها السود الطويلة ، تقول كل الاشياء الرائعة .

فى لحظة العصارى الطرية ، من كل يوم ، يتناهى اليه ، وهو جالس على راس الجسر ، على كرسى من جريد النخل . غناء صابرين فى الحقول البعيدة ، حداؤها . الشمس تنحدر نحو المغيب ، تستطيل ظلال الاشياء ، تبهت معالمها ، تتداخل فى بعضها ، صوت صابرين من بعيد ، يروح ويجىء مع الرياح ، تبعثره هبات الهواء .

ــ وطلعت فوق السطوح أنده على طيرى .

يشعر صفوت ، على البعد . أن غناء صابرين يطفىء ناره ، يروى عطشه .

ــ لقيت طيرى بيشرب من قنا غيرى .

حزنه ، فى هذه اللحظة ، حزن بكر ، له طعم ، بيـد أنه رائع . يسرح بخياله الى الاسكندرية ، فى ساعة سقوط الليل من كل يوم ، الانوار الوليـدة . العشاق فى الشـوارع المزدحمة . ضباب ساعة الغروب ، المساء يسقط . صوت فرامل سـيارة تتوقف . السلم الكهربائى فى محطة الرمل . اعلانات النيـون ، بيرة ستلا ، لذيذة ومنعشة ، اشربوا هوايت هورس . الصـور العارية ، المجلات الاجنبية ، سافروا الى روما ، أثينا ، باريس ، نحن فى خدمتكم . الدور العلوى من المترو الازرق الغامق ، والقادم من سيدى بشر وباكوس ، عند اسبورتنج يفترقان . والهام ، آه يا الهام ، يا لعذوبتها ، حلاوتها ، وداعة الحزن فى عينيها . لقـد أحبها كما لم يحب أحدا من قبل .

كثيرا ما حدثه والده عن متاعب حقيقـة . وكانت ثورة الادهم

على اناس اقاربه . اخذ من الفقراء واعطى الاغنياء . وصفوت فى اعماقه يخاف كل ما يحدث فى البلد . يتصور ان هـذا كله ضد والده ولكنه لا يستطيع ان يحدد موقفه بوضوح . فهو لا يستـــطيع ان يكون مع والده أو ضده . غير ان والده يطمئنه بوعود خياليـة لا وجود لها الا فى ذهن والده . كان والده يسخر من أشياء كثيرة ، عصر الشهادات ، القوانين الاشتراكية . كثيرا ما أبدى مخاوفه من التأميم ، من أين لك هذا .

فى اعماق الليل ، وهما جالسان فى الحديقة الجميـلة أمـام السراية ، والظلام مساحات ، والصمت أعمدة مستطيلة ، كـان والده يسأل نفسه : ماذا يخبىء لنا الغد . فى هذا الصيف ، عاد الى العزبة ، مثقلا بهموم لا حصر لها . وجد ان صابرين ، والتى كانت تعمل مع الانفار فى حقول العزبة ، وجدها تعمل فى المنزل مع أمه . ادرك بحواسه ان هذا الصيف سيكون صيف خطر . صابرين تروح وتجىء ــ صدته أكثر من مرة ، تدخل غرفته وهو شبه عار . بعد أن يصحو من نومه على يوم دب فيه الفتور والعجز ، يوم شائه المعنى . تحمل له الفطار ، تسوى فراشه ، تغسل له ملابسه الداخلية . حاول معها المستحيل ولكنها منعته ، تمثلت له فجيعته فى الانسة الهام ، عزيزتى الهام ، والاسكندرية ، فبدت له صابرين هى الخلاص الوحيد . فى آخر مرة زجرته فيها ، وكان القلب خاويا ، والذهن متعبا مكدودا . فكـر فى أبى الغيـــط ، لم يره منذ سنة كاملة ، يعمل مع انفار الترحيلة فى جناكليس . صابرين ، يالها من مهزلة .

الاسكندرية فى ليل الشتاء . لقاؤه التاسع مع الهــام . كان جالسا فى « على كيفك » . فى اللقاء الاول ، ما زال يذكـر كل شىء ، حضر قبل الموعد بساعة كاملة ، عاين المكان بكل دقة . فى هذه الليلة ، والليل على أشده ، والسماء مثقلة بالغيوم ، والقمر لا يبـــدو من تحت السحاب الا نصـــفه . يلقاها للمرة التاسعة . تجلس أمامه . تشكو له من مضايقات المدام ، زحام المواصلات ، السهر حتى آخر الليـــل . بســـمة الحبيب للحبيب . الحب يذرع المسافة بينهما .

ــ تشربى ايه يا ست الهام .

يستريح الحزن فى عيوننا .

ـ اشرب فروت صولت .
يا واهبة الاحلام ، انا صفوت ، صفوت هبة الله المنيسى . اقرا فى عينيك السوداوين الحانيتين الاحزان ، كل الاحزان . لم يسألها، انصت اليها .
ـ تعرف يا صفوت أن المدام معجبة بك .
قال لها عن نفسه كـــل شيء . الارض الواســـعة . الغنى اللامحدرد . قال انه من دميسنا ، وأن حزنه يشتد فى الجزء الاخير من الليل . وأن فراشه كالقبر ، وانه لم ينكشف على أية امـــرأة فى الاسكندرية ، وأن تجاربه فى العزبة باهتة ، وانه يحب أمـــه اكثر من ابيه ، وانه يحكى لها كل شيء ، أسرار العزبة ، الناس ، حتى الجسور والزروع والمكاسب والخسارة . قالت له : ان أباها ارمنى واسلم وان أمها من غيط العنب . وأنها تعمل عند المدام منذ مدة طويلة . حدثها بكلمات رائعة الوجه ، حلوة المذاق . قال انهـــا أعظم من رأى . لم يكن يتصور أن تمر الايام بدون الهام . شكرته بعذوبة . قالت انها لم تكمل تعليمها . وأنها عندما تعود الى منزلها فى الرابعة صباحا ، من كل يوم ، تشعر بفراغ مخيف .
ـ جرسون الحساب ، خلى الباقى علشانك .
قال لها انها الحب الاول والاخير .
ـ تاكسى ٤٠ شارع النبى دانيال من فضلك .
ـ حسابك كام .
نزلت . نزل . الشارع مفروش بالظلام البليد .
ـ تصبحى على خير يا أعز الناس .
ياه ، الحزن المتسلل يدق جدار القلب المكدود . تصـــور أن المدام ، مديرة لاحدى الاعمال . لم يتصور أن الهام بشر ، ربما ملاك ، شيء نادر الحدوث . الهام والا فلا . ليذهب كل شيء الى العدم ، تضيع العزبة ، يموت أبوه ، تغرق الاسكندرية فى طـــوفان هائل رهيب . كم من ليلة سهرها ، يسائل الليل عن أشـــواقه ، حبه لالهام ، الاسى ، الرؤى المستقطرة من العذاب والالم ، الحزن العميق . وفى كل مرة لم يكن يسمع سوى اشجان الليـــل المستقطرة من أعماق الصمت . وكان ، فى كل مرة ، يدرك أن ذلك خطأ ، وانه لم يأت الى الاسكندرية لهذا ، وأن العزبة والاسم والارض وكل شيء هناك ينتظره ، ولكنه كان يخاف ، كان يخـــاف

اشياء يشعر بها بشكل مبهم ، ولا يستطيع حتى أن يعبر عنها بالكلمات .

عندما وصلت صابرين الى حجرته ، لاول مرة ، بعد عودته من الاسكندرية ، مازال يذكر هذا جيدا . كان الوقت صباحا ، وكان هو قد افاق لتوه من النوم . أمامه طعام الافطار . وصلت تحمل الشاى ، ترتدى ملابس المنزل الداخلية .

ــ انتي بقي لك قد ايه هنا يا صابرين .

ــ شهرين ونص بس .

الصدر الناهد ، الجسد الذى يعلن عن تفجره .

ــ مش هنا احسن ياصابرين .

صابرين كيان مفعم بالروعة ، بالشقاوة .

ــ آهو كله شغل ياسي صفوت .

توقف عن المضغ ، سرحت عيناه فى سماء سبتمبر الصافية .

ــ اللا انتى بتحبى أبو الغيط ياصابرين .

استدارت اليه . طالعه صدرها العريض . تحدرت رموشها على وسائد خدودها الوردية . الصمت المفعم بالاسى :

ــ مش جوزى ياسي صفوت .

تذكر أبو الغيط ، ظهره المقوس ، السعال الذى يشق صدره .

ــ دا جوزى على سنة الله ورسوله .

الشيء الحائر فى عينيه ابدا . فجاة ، قفز شيء ما ، ذبح احساسها ، مزقه ، قتله ، نظر اليها .

ــ قصدى بتحبيه ــ يعني انا .

عيونها ، فى هذه اللحظة ، باهتة المقل ، تطل عليه من عالم آخر تماما ، فى بلاهة حزينة . تحير ماذا يقول لها ، هل تشعرين بالشوق اليه ، بالرغبة فيه ، بالحزن من أجله . هل تصعد الى أعلى منزلهم ، ساعة الغروب وتتذكره ، تناجيه ، تقول له : ما يثقل الفؤاد بالهموم .

ــ ياسلام ياصابرين .

لم يكمل . أطل الحزن من عينيها . وضح من تحت الرموش الحلوة السوداء . تنهدت . حملت غياره ، وخرجت من الغرفة ،

شعر برغبة حارة فى البكاء . عندما تذكر الهام ، أدرك ، أن الـكل باطل وأنه لا شيء له قيمة .

احبك يا الهام . شارع النبى دانيال . ذهبنا الى كل الامكنة ، تناولنا الطعام فى منزلها فى غيط العنب ، وكان الشـتاء لينـا ، رخوا . ذهبنا الى مونت كارلو ، غدا يا حبيبى ، قد يكون أفضل من اليوم ، اليس كذلك . سهرنا معـا حتى الصـباح فى القط الاسود ، وكان الليل منطفئا ، والمصابيح معلقـة فى السـماء الداكنة ، شربنا البيرة المثلجة ، فى عز الشتاء ، فى الامبسادير . قلت لها : حبى لك يا الهام كالقدر ، لن تستطيعى الهروب منـه . فى اللؤلؤة الزرقاء صنعنا معا أسطورة حبنا ، حبات المطر فى شارع صفية زغلول . يدى فى يدها . تنام تحت ابطى .

ياسلام يا الهام .

وميدان الرملة المغسول بالدموع . نسى الـكلية ، دروس الانجليزى ، ماركس ، داروين ، مسائل الرياضيات . أصبحت الهام هى كل شيء ، لم تحدثه عن الزواج ، أو المستقبل ، لم يعرف أى شيء عن عملها . حدثته عن مضايقات الزبائن ، ولكنه لم يسـألها من هم . لم يكن يهمه حقيقة ، هل تحبه أم لا . وصل صفوت الى درجة اللامبالاة بكل شيء ، دراسـته ، مسـتقبله ، قنع بحبـه ، تجربته البكر . روى جفافه العظيم . هرير الانفعال فى أعمـاقه يؤنس وحشته فى ليالى الشتاء الطوال . حبه لالهام رقيه ، انتصار عيونها حياة كاملة .

***

... وفى حالة عدم اتصالكم بالكلية ، لايضاح أسباب غيابكم . ستضطر ادارة الكلية ، الى اتخـاذ الاجراءات القانونية لحرمانكم من الامتحان ولفصلكم .

مع وافر التحية ..

الاسكندرية فى / / ١٩٦٦

مسجل الكلية

امضاء

في يوم آخر ، كانت صابرين تكنس حجرته ، وكان هو جالساً في بلدته :
ـ لا ياصابرين ، ايه املك في الحياة .
توقفت ، انتبهت اليه . لم ترد . رنت اليه .
ـ عايزة ابو الغيط .
لم ترد . اقترب منها . مد يده عليها . في مثل هذه الساعة ، من كل يوم ، وهو يتذوق على الصباح ، مرارة يومه ، طعمه الشائه. تدخل صابرين حجرته . يقول لها كل شيء ، يناجيها ، يفرد بينه وبينها حزنه الخاص . قال لها :
ـ باحبك يا صابرين .
عندما كان يقول ذلك ، كانت تتبدد ساعات الكبرياء في حياته ، تذبح ، تتوه ، تصبح ذكرى قديمة . يقترب صفوت منها ، الابتسامة العذبة ، اليد الناعمة . صابرين ، بعد ذلك ، أيا كانت في الحقول البعيدة ، في منزلها الصغير ، يتوه كل شيء في وعيها ، تدور بها الارض . يتمدد في أعماق منها ، الخدر الناعم اللذيذ ، الاحساس الاملس بالرغبة ، انزعجت صابرين عندما تبينت آخر الامر ، أنها تحب مداعباته ، ترغب فيه ، تنتظرها . استعانت بأبي الغيط ، ولكنه كان بعيدا ، في جناكليس ، لن يحضر الا بعد اسبوعين . وحتى لو حضر . فانها لا تشعر نحوه بحب أو كراهية .
كانا يجلسان في على كيفك ، الوقت شتاء ، قبل منتصف الليل . يجلسان خلف الزجاج ، حبات المطر تنزلق على الزجاج في كسل . المعاطف الثقيلة . ارضية الشارع المبلولة تعكس الانوار والاحزان والدموع . تجلس الهام قبالته :
ـ قطعتين سكر .
البخار يتصاعد من فناجين الشاى .
ـ لا ، ثلاثة .
ابتسمت له ، ابتسم لها . تعانقت الايدى . احس بذوب الحب في أعماقه . في آخر الليل ، الشوارع يتداح فيها الركود . همست له الهام :
ـ حا انتظرك بكرة الساعة تسعة ونص عند مدام سونيا ، لازم تتعرف بيها ، الصراحة كويسة .
ـ أن شاء الله .

قالت بصوت منطفىء :

ـ المدام بتاخد ثلاثة جنيه .

ابتسمت . رفعت يدها :

ـ اتفقنا خلاص . المدام بتاخد ثلاثة جنيه .

أيديهما فى ظلام الشارع كالاشباح . وكانت نجوم السماء منطفئة ، تسكب نورا رماديا على الشوارع المبلولة . عاد الى منزله نام فى سريره . فى آخر الليل ، أصوات سيارات تمر بسرعة البرد فى الخارج . على المدى البعيد تتكسر الامواج على صخور الشاطىء . عبد الستار يقف الان على راس الجسر . احس أنه يريد أن يبكى على الصباح ، حتى يسحب الليل نفسه . ولكن الدموع عزت عليه . شعر بالحزن ، ولكن عينيه لم تدمعا دمعة واحدة .

لا يحزن صفوت فى هذه العزبة الواسعة ، الا انه وحيد ، يواجه كل شىء بمفرده ، دونما صديق ، شخص ما ، يحكى له كل شىء ، يقول كل مابنفسه ، يخرج أمامه مايعشش فى أركان ذاته . تذكر صديقه مدحت فى الاسكندرية ، المشى على الاقدام بعد منتصف الليل فى سموحة ، واللب ، والسجائر فى ليل الشتاء ، والحكايا المبتورة . فى العزبة يشعر بالنفور من ابى الفتوح ، يحس بالرهبة تجاه عبد الستار وما يمثله له ، الليل والظلام ، يخاف اللصوص يحس فى أعماقه بالاحترام للزناتى ، وعدا هذا لا شىء . لا يدرك حقيقة شعوره نحو صابرين ، عندما يراها فى كل صباح ، تتمثل له فجيعته فى الهام ، يدرك مدى جفاف الحياة من حوله . ذات صباح ، حضرت اليه صابرين .

ـ صباح الخير ياسى صفوت .

شعر بفراغ فى القلب . بدت له صابرين رائعة . خطيبها ابو الغيط قريبه ، من نفس عائلة المنيسى . ولكنه لا يفكر الا فى صابرين التى تقف أمامه الآن . امسك بيدها . ثرثرة الحياة اليومية فى العزبة تأتى اليه من بعيد . هديل الحمام فى البرج القريب ، صوت القبانى الذى يزن القطن يصل واضحا . نظرت صابرين اليه ، التماعة الشوق فى عينيها ، رائعة ، حلوة ، احس بجفاف فى حلقه .

ـ صابرين ، انا باحبك .

احس ان فى صدره ، فى نفسه ، فى أعمق الاعماق منه ، جفافا لا ترويه كل انهار العالم .

ـ انا مستعد اتجوزك ياصابرين .

تخلصت منه برقة ، خرجت ، احست برغبة فى البكاء . بدات تشعر بأنها تحبه . ولكنه صفوت ابن الحاج هبة الله المنيسى ، وهى صابرين بنت عبد الستار غفير العزبة ، وأخت الزناتى ، وبنت ستهم ، انها الآن تنام ، تصحو ، تذهب الى الحقل ، تغسل قدميها المشققتين ، تحلم بالليل ، تبكى بالنهار ، تحضر الى منزل الحاج هبة الله المنيسى مع أول اشعة الشمس ، تعود والظلام قد حاصر العزبة ولفها . لكن حبها لصفوت .

ـ ليه كدا يارب ، وابو الغيط ذنبه ايه .

حبها لصفوت ، فى صدرها كنتف من السحاب لا يمكنها الامساك بها . صفوت يطاردها . لا يدرى ماذا يريد منها ، هى ايضا لا تعرف ماذا تريد منه . الاسى يترقرق فى صدرها كالدموع ، فى اعماق الظلام ترى التماع الدموع المنحدرة على خديها الورديتين . فى كل صباح ، ترى صفوت ، يطل من نافذة حجرته ، يشرب العالم ، الرؤى المفعمة . يقول لها كلماته الحلوة . صابرين ، تستريح على وسادة الصوت الرائع ، تنام عليها ، تحملها الى عالم الوهم والخيال . ولكنها لم تدرك ، وهى فى قمة سعادتها ، انه يوجد هنا ، فى هذا الصوت الحنون ، الكيان الرائع ، الجسد البض ، الهمسات الملتاعة ، دقات القلوب التى تحملها نحو مستقبل مجهول . لم تدرك ان صفوت ، صفوت هبة الله المنيسى ، هو قدرها ، رغبتها النائمة فى اعمق الاعماق فى أن ترتمى فى أحضان هذا الافندى القادم من الاسكندرية ، تستسلم له ، تنام تحت قدميه . أما صفوت ، كانت الهام أمله ، ربما الوحيد ، فى الخلاص من كل شىء . ماذا لو قال لها كل شىء ، طلب منها الزواج ، عاش معها هنا فى الاسكندرية ، انه لا يريد ان يكون منيسى آخر ، ولكنه ، وهو فى الطريق اليها ، كان مترددا .

فى التاسعة والنصف مساء ، كان فى الطريق الى منزلها ، سيطرق باب الشقة . لا ، سيضغط على الجرس ، تماما ، كما يفعل أبناء المدينة . يقف لصق الباب ، كلا ، من الافضل ان يقف على البعد . يفتح له الباب . مين ، يبلع ريقه .

ـ الانسة الهام موجودة .
ـ أقول لها مين يا افندم .
ـ صفوت المنيسى .

لا . يجب أن يعد لها مفاجأة ، مثل مفاجأة الجنيهات الثلاثة . يقول لها أى اسم آخر ، ينزل درجتين ، ينتظر خروجها اليه .

ـ أهلا صفوت .

يجلسان على السلم . الصاعدون والهابطون نظراتهم مثقلة بالدهشة . يقول لها كل شيء .

ـ ازيك يا صفوت .
ـ أهلا الهام .
ـ الاستاذ صفوت المنيسى .
ـ أهلا مسيو منيسى ، تشرفنا .

جلس . بدت له الهام رائعة . رنا اليها بحب . تركته بعد قليل ، دخلت ، جلس بمفرده ، حضرت له المدام .

ـ شوف مسيو منيسى ، البيت تحت أمرك . الهام تحت امرك . هيه كلمتنى عنك ، انت من عيلة غنية .

هدير الانفعال فى أعماقه . ود أن يقول للمدام انه يحب الهام ، وانه سيخطبها فى أول العام القادم . وكان صوت المدام ، فاقع النبرة ، حاد الامح ، مفرطح الوجه :

ـ اذا كنت تريدها لمدة ليلة كاملة ، فادفع ثلاثة جنيهات ، وجنيه ونصف حتى منتصف الليل ، نحن قوم محترمون يا مسيو منيسى ، ولا تنس أنها بكر ، وأنها لم تتعد العشرين بعد . مسيو منيسى . مسيو منيسى ، الهام تحت أمرك . هيه فى الاوضة جوه .

الحزن فى العيون بكر ، مستطيل ، مسطح . قام يجرى الى الخارج ، غطى عينيه بيديه . اذا كنت تريدها . جرى الى الشارع مسيو منيسى . ايه يا اسكندرية الاحزان والاكاذيب . فى قلبه ماتت كل الرؤى . دفن العالم . تهاوى . تفتت ، لا تنس أنها بكر . الاسى أشرعة سفن مفتوحة ، ممتلئة بالرياح ، تقلع من على الشاطىء تحمل الاحبة ، الاعزاء ، الى حيث لا يرجعون أبدا . أشرعة بيضاء ، تختلط على المدى البعيد ، بزرقة البحر الوادعة ، تتوه ، تضيع ، تتلاشى ، لكنها فى كل الاحوال لا تعود أبدا . مسيو منيسى . لا تنس أنها بكر ، صفوت يجرى ، يلهث ، يصعد السلم فى منزله . يلقى

بنفسه فى السرير . لا ينام . صفوت لا يدرى ماذا يفعل . الهام كانت تنتظره فى الحجرة . ابتسمت له المدام . يدرك صفوت انه حزين ، ولكن من يبالى .

لا يمكن أن يقال أن الاسكندرية ، بكل مافيها ، هى سر ماحدث لصفوت المنيسى . فنشأته وتركيبه ، بل وطبقته ، كانت تعده لان يكون من الناجحين فى الحياة . ومن الممكن أن تكون ظروفه ، طبيعة علاقاته ، خروجه الى الحياة العامة ، موقفه من كل ما يحدث فى البلد . قد تكون هذه أسبابا . ولكن من المؤكد أنه لم يكن واضحا لنفسه بالقدر الكافى . كانت الهام ، كأول الاشياء الصادقة فى حياته جعلته أكثر غموضا حتى مع نفسه . وفى العطلة الصيفية ، عندما كان يلتقى بصديقه ، حامد ابن الحاج منصور أبو الليل ، صديق والده ، كان يشعر أن حامدا أكثر وضوحا مع نفسه . ولكن من المؤكد أن فى أعماق صفوت منطقة مجهولة ، علة قديمة ، داء لم يشف منه بعد . مساحة ظلت بلا اكتشاف حتى الان .

فى ظهر هذا اليوم الحار ، كان صفوت يدرك أن هناك شيئا غير عادى سيحدث له . دب فيه الفتور والكسل . عزبة الحاج هبة الله المنيسى فى ١٣ من سبتمبر ١٩٦٦ . أطل من النافذة . شاهد صابرين تدخل منزل التبن . قفز من سريره . وصل الى مدخل السراية . صابرين أصبحت خارج المخزن . اقترب منها . ابتسم لها بسمة تقطر عذوبة .

ــ انا منتظرك جوه المخزن .

ادارت راسها . لم ترد عليه . كان يدرك انها ستحضر اليه . بالفعل حضرت . انه المكتوب ، اعمل ايه . انها ، ككل الناس هنا ، لا حيلة لها فيما يحدث . دخلت مخزن التبن . همس فى أعماقها خاطر مضحك . الستر يارب . توقفت على باب المخزن . الشمس فى كبد السماء .

انتهت فترة القيلولة . غناء الانفار الذين يجمعون القطن فى الحقول البعيدة ، تبعثره هبات النسيم ، فيصل اليها مشوشا . فتاة غيرها تحدو . فى مثل هذه الايام ، من العام الماضى ، قبل أن تعمل عند الحاج هبة الله المنيسى ، كانت هى التى تحدو ، تغنى ، تعمل ، تجرى ، تجلس تحت الضليلة ، تنام فى الليل ، تحلم بالحب وبوصال الحبيب . اما فى هذا العام ، فهى تعمل فى سراى الحاج

هبة الله المنيسى . حسدها الجميع ، احست عند حضورها الى السراى بخوف غامض ، دغدغت حواسها أشياء مجهولة .
أدارت عينيها المكحولتين باليأس والحزن فى أركان السكون الاربعة . السحاب الابيض كنتف القطن المندوف . صوت البنات يتهادى ، ينساب وطلعت فوق السطوح ، أودع الاحباب . السماء الصافية ، حطيت أيدى على قلبى لقيته داب . الحقول الرمادية اللون .
– خلى بالك م النضافة انت وهوه .
أعمدة القيظ والحرارة . حطيت ايدى على شعرى لقيته شاب . يد صفوت المنيسى تمتد اليها من أعماق العتمة – شدها اليه . ما يشيب الشعر الا فرقة الاحباب . خرج صوتها مرعوشا ، جافا .
– لا ياسى صفوت .
بعد جنى القطن يا حبيبى ، يا نور العين ، أى بعد أيام قليلة ، سنتزوج . آه يا أبو الغيط ، باقى أسبوع واحد ، أسبوع فقط ، ويعود أبو الغيط . ياذوب النفس ، سيبيع والدها المحصول كل شىء جاهز .
– لا ياسى صفوت .
نهيق حمار . وطلعت فوق السطوح أودع الاحباب .
– تعالى ياصابرين .
ثمن قنطار القطن كذا ، فى المنزل كذا .
– دا فاضل أسبوع واحد ياسى صفوت . لا .
حطيت ايدى على قلبى لقيته غاب . يده الناعمة ، جسده الابيض البض . المخزن ، العتمة ، حبات العرق .
– يامصيبتى ، دا أبو الغيط ماعملهاش ، ياسى صفوت .
أبو الغيط ياحسرتى ، انه الآن ، فى هذه اللحظة بالتحديد ، بعيدا ، فى جناكليس . ربما ينام تحت تكعيبة العنب ، ينام على ظهره عقب الغداء ، يتحسس بباطن يده الخشنة السمراء ، الارض من تحته . يفكر فى صابرين ، فى الايام السعيدة المقبلة ، ليلة الدخلة .
– انتى ياصابرين ، أحلى بنت فى العالم .
نظرت اليه ، لم تقل له أى شىء . قاومته ، مزقت قميصه ،

قطعت السلسلة الذهبية المعلقة فى عنقه . تذكرت وهى تقطعها ؛ حلقها ومصاغها القشرة . انكمشت صابرين على نفسها في خوف ، عينا صفوت تبرقان بشىء صادق . ازدادت انكماشا . الزناتى الان يشرب الدور الثانى من الشاى . والدها عبد الستار ، ينام فى المصلى . الزناتى جالس تحت دكر النخل البعيد .

ـ يالهوى ، دا فاضل أسبوع واحد .

صفوت يقترب منها :

ـ أخيرا ياصابرين .

لا تدرى معنى مايقوله .

ـ أنا عمري ماحبيت غيرك ياصابرين .

هى أيضا لا تدرى كيف أحبته . انها ، فى هذه اللحظة ، ترغب فيه لدرجة الوله والحب ، وتكرهه لدرجة الرغبة فى قتله .

ـ لو تستنى اسبوع واحد بدل الفضيحة .

دغدغة الانفعال فى صدرها المفعم بالمرارة ، الشوق الحار .

ـ أخيرا ياست الكل .

صفوت يزداد اقترابا منها . صابرين تفكر فى الحلال والحرام ، والفضيحة والستر . فكرت فى الزناتى تحت دكر النخل البعيد ، فى والدها النائم فى المصلى استعدادا لليالى السهر الطويلة ، فى ستهم ، في أبي الغيط ، فكرت فى الملابس الجديدة فى صحارتها فى المندرة ، المناديل الملونة ، زجاجة الكولونيا ، قميص النوم الذى لم تلبسه بعد . النقوش والرسومات للادهم والغازية التى أحبها ، وابنة عمه ، على جدران حجرة أبو الغيط فى منزله الصغير . فكرت فى النحاس الجديد ، الطشت ، الابريق ، الاوانى ، الحلل ، الوابور البريموس فى علبته الجديدة . فكرت فى الحصيرة التى لم تفرش بعد ، الصحارة المزوقة بصور فتيات بالفات الجمال . اقترب منها ، وضع يده على كتفها . تحسس خدها الناعم ، مر بأصابعه الطرية على شفتيها الدسمتين . أدرك أن لكل انسان بؤسه الخاص ، حزنه ، أله ، عذابه . عندما ضمها الى صدره ، أحسب أن هذه الضمة قد ابتلعت كل ذرات التردد الناعمة . قاومته ، أبعدته ، ولكنها فجأة ، ضمته هى الاخرى . أحسا انهما معا ، هو وهى ، يغرقان كل جزئيات المأساة ، كل كميات الحزن ، كل أنهار الدموع ، كل لحظات الحرمان . كل هذا يغرق فى جوف هذه اللحظة الجنسية العارمة

عندما تحدرت بين الرءوس الســوداء ، وعلى كرسى خــدها الاحمر ، قطرات الدمع الدافئة ، أدرك انها عظيمة . أدرك ايضا ، انه ينتقم ، ينتقم من كل شيء ، من الاسكندرية ، الصدور الناهدة ، الارداف الثقيلة ، الحزن الذى بلا حدود . « كانت الاسكندرية والهام ، مجرد مناسبة ، لتحديد تراجعه النهائى بازاء كل شيء ، كان يحمل فى اعماقه بذرة فشله . نواة دائه ، واخـيرا عثر على المناسبة » ينتقم من عصر الشهادات ، عصر الكفاح المقدس ، مـن الرسوب فى كل عام والنجاح بالتعويض ، من محطة سيدى جـابر المبطنة بالنفوس البشرية كل مساء .

– حرام عليك ياسى صفوت ، دا ابو الغيط ماعملهاشى .

ينتقم من بائع اللبن فى السادسة صباحا ، من الكواء والقصـاب والبدال .

– دا ابو الغيط راجع بعد اسبوع .

ينتقم من الدروس الخصوصية ، من نأسف لعدم نجاح نجلـكم هذا العام ، ونأمل له النجاح فى العام القادم ، مسيو منيسى ، الهام فى انتظارك ، ينتقم من جانيت ومونا وفرانسواز وفيفيان ومــدام سونيا رعزيزتى الهام . يا لنعومة جسدها الحريرية ، صـابرين . الذى ادهشه بعد ذلك انها فى المرة الثانية لم تمتنع لم ترفض . كانت فى عينيها بقايا دموع . احتضنته ، قبلته . منحتـه كـل مايشتهى .

عندما وقفت صابرين تماما ، راحت تنفض ذرات التبن من على شعرها المنكوش ، لمت شعرها ، لبست طرحتها . لم تنظر اليـه . كان جالسا على أرضية المخزن . لمت نفسها ، مضغت احزانهـا . خرجت على وجهها اشياء كثيرة . دهشة ، رهبة ، انفعال . لم تدرك مدى بشاعة فعلتها الا عندما فكرت فى الماشطة ، وابو الغيط وامها والزناتى وهو واقف أمام باب حجرتها ، فى ليلة الدخلة ، أمام باب المنزل المطلى حديثا ، أهل العزبة ، واهل دميسنا ، كلهم ينتظـرون أن تخرج المحرمة ملوثة بالدماء الحمراء القانية . ترتفع الزغـاريد . تطلق النيران . يغنى أهل العزبة . يا بخت اللى طال حبيبه . يا بخت اللى طال حبيبه .

فى أعماق الليل ، صعدت صابرين الى سطح المقعد العـالى ، جلست ، تناهت اليها اشجان الليل ، أصغت ، لم تتكلم ، شعرت

بالحزن ، بالحنين ، بالرغبة ، ابو الفيط بعيد ، فى جناكليس ولكنها لا تفكر فيه لا تشعر بالحنين اليه ، بالرغبة فيه . يكفيها صفوت ، أجل صفوت المنيسى بالذات . عند هذا الحد ، لطمت خدودها .

ـ يالهوى . يامصيبتى .

صوت والدها ، من هناك . ظل الزناتى على جدار وسط الدار ، امها تعلف الجاموسة فى الزريبة . والنجوم شاحبة حبلى بالحزن . هل ستبكى على نفسها ، أم ستدعو أهل العزبة ، العدو قبل الصديق كى يذرفوا عليها الغالى من الدموع . هل تلطم ، تشق الجلباب ، تغوص فى الطين ، تجرى كالمجنونة ، تأكل لحمها ، ترمى نفسها فى الترعة ، تمضغ احزان العالم ، تخرج فى الصباح الى الجسر عند مدخل العزبة ، وتقول لاهل العزبة كل شىء .

عندما خرج صفوت من مخزن التبن ، الظلال باهتة ، حداء الانفار يأتى من بعيد . ليه يا نعيمة يا جليب الخص ريانة . نسمة هواء كسلى تمسح وجهه فى فتور . تناهى اليه صوت وابور الطحين ، الاتى من دميسنا . تك ، تك ، تك . الانفار يغنون : وان شفتها يا العريس فى الطشت عريانة : تك ، تك ، تك . نسمات الهواء تبعثر الاصوات . وعلى صفحة السماء الزرقاء الفارغة ، كانت نتف من الدخان الاسود المتقطع ، التى تخرج من تكتكات وابور الطحين ، تسير فى كسل وفتور فوق سماء دميسنا .

الكبرياء

الاثنين ٢٣ من سبتمبر ١٩٦٢

فى هذا المساء ، كانت عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، تبدو بشكل يوحي بالقدم . فلم يكن الدور الثانى من السراى قد تم بناؤه ، كما وان السراى لم تكن قد دهنت باللون الابيض ، حتى شجرة الجميز ، عند مدخل العزبة ، لم تكن قد قطعت بعد . فى اعماق الليل ، والليل محنة لعبد الستار ، والظلام مقبرته ، كانت تقف شجرة الجميز كحارس ليلى . والجزء الخلفى من التندة لم يكن تم بناؤه . حتى عبد الستار ، كان ، نضرا ، كان يداوم على الذهاب الى ستهم كل ليلة فى لحظة انتصاف الليل . وصابرين ، كانت اقرب الى الطفلة الرائعة ، منها الى الفتاة الناضجة .. مجيء المساء بطراوته ، يعنى انه محاولة لغسل كآبة اليوم الطويل ، المساء يزرع مكانها افراحا جديدة ، يحيط العزبة ، ببحار المدهش ، غير العادي ، الفرحة تمرح فوق شواشي الاشجار ، هامات النخيل ، بحر الحقول اللانهائي .

فى هذا المساء ، كان كل من فى عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، يدرك حقيقة ما سيحدث . سيعقد قران صابرين ، ابنة عبد الستار ، على أبى الغيط . لحظة المساء ، هذه الليلة ، مسربلة بالضباب . اشعة الشمس الوردية ، تتكسر على بحر من الحقول البعيدة . عبد الستار فى هذه الليلة ، لم يقف على رأس الجسر كعادته . ولكنه عندما مر على دكان أبو الفتوح ، لم يشتر باكو الدخان مثل كل ليلة . وقف على بعد واضح من البنك ، تحسس جبهته .

ـ هات تلات علب سجاير بلمونت .

تحسس جبهته ، اشار بأصابع يده التى اصفرت من كثرة التدخين .

ـ علب كبار يا أبو الفتوح .

ارتفع اكثر من صوت من الواقفين امام الدكان :

ـ الف مبروك ياشيخ الغفر ، ربنا يتمم بخير .

ـ عقبالكو كلكو يا أولاد .

أخذ علب السجاير ، انصرف ، وكان راديو أبو الفتوح يقول : ان

صدور القرارات الاشتراكية فى العام الماضى معناه بالتحديد ..

فى صباح اليوم ، خرجت ستهم ، وتراب الارض مبلل بقطرات الندى الباردة . كنست حجرات دارها ، كنستها قبل أن يخرج الرجال لعملهم ، ذلك أن كنسها بعد خروجهم يجلب النحس . كنست الحارة . تحيات الصباح تأتى الى سمعها من البيوت المجاورة ، كلمات التهنئة ، شيء غير عادى تحسه فى أعماقها هذا الصباح . كان الكل يدرك أن صابرين لن تزف الى أبى الغيط ، وان الامر لن يتعدى كتب الكتاب فقط . والدخلة ، قال عبد الستار : ع القطن الجاى . وصابرين لم تكن تطمع فيما هو اكثر من أبى الغيط ، فهو قريب للحاج هبة الله المنيسى ، بس من بعيد شوية ، كما يقول الحاج هبة الله نفسه ، ابو الغيط لا يعيبه سوى ذلك السعال المشروخ ، ولكن ستهم قالت لصابرين : أكثر من مرة ، وهى أمام الفرن ، او على السطوح : هيه الرجالة تتعيب . قالت لها الماشطة منذ اسبوع مضى : هوه يعيب الراجل الا جيبه . رغم كل هذا فستهم ، فى هذا الصباح ، كانت تدرك أن هناك شيئا ما ، شيئا لا يمكن تصوره يحدث بداخلها .

عندما اكملت ستهم كنس الحارة كلها ، جمعت الكناسة ، حملتها ، خيطت يد المقشة عدة مرات فى مصطبة دارهم . أحضرت ميـاها نظيفة ، رشت الحارة . دخلت وسط الدار . فرشت الحصيرة الجديدة فى المندرة . وضعت ملابس عبد الستار والزناتى المغسولة تحت مخدة ثقيلة كى تضيع الكسر الموجودة فيها . وقفت فى وسط الدار . كانت صابرين بالداخل . الذى أدهشها ، انها بكت ، لا تدرى لم ، ولكنها بكت كما لم تبك من قبل .

بعد صلاة الصبح فى المصلى ، عاد عبد الستار ، سمع بكاءها ، ابتسم لنفسه . جلس فى وسط الدار :

ــ هاتى لى نفطر يابت ، بلاش العياط ده .

بطرف كمها الذى حال لونه الاصلى ، مسحت دموعا حارة . دخلت حجرة المعاش : عبد الستار يهمس فى سره ، ربنا يتمم بخير . كان فى أعماق ستهم ، شعورا مبهما بالحنين ، بالرغبة فى البكاء . فى الليل ، تستقر الظلمة فى الحارات ، كانت ستهم تستدير الى هذا الخوف ، تخرجه ، تعريه ، تعايشه . ولم تكن تدرى سببا واحدا يدفعها الى مثل هذا الخوف .

أحضرت الفطار لعبد الستار ، كان يدخن سيجارة فى يده :
ــ ياخويا بلاش الهم دا قبل الفطار .
تنهد ، سحب نفسا طويلا كاد ان يأتي على السيجارة ، فتذكر دفتر الشكك في دكان ابو الفتوح . خرج الدخان كثيفا ، بطيئا .
قال لها والدخان يغطى ملامح وجهه :
ــ عمر الشقى بقى يا ام صابرين ، تعالى نفطر تعالى .
لاول مرة ، منذ سنوات طويلة ، يدعوها للافطار معه ، فهم لا يجتمعون حول طبلية الطعام الا يوم السبت ، وهو يوم السوق ، فيه يذبح الدجاج ، وتفوح رائحة السمن ، وينتشر أمام البيوت ريش الدجاج والبط . وتذهب بين حين وآخر فتاة صغيرة خجول الى أمام المسجد . تقف بالقرب منه . تخرج الكلمات من فمها ، مبعثرة، حيرى ، تقول له :
ــ امي بتقول لك ، تعالى ادبح لنا فرخة .
يرميها بنظرة غامضة :
ــ طيب روحى وأنا جاى .
فى هذا اليوم ، من كل أسبوع ، يشترون من السوق كل شيء . « لا يشترون عادة الاشياء التى تزرع في العزبة » . وليلة الاحد ، بالنسبة لنساء العزبة ليلة موشاة بالرغبة ، بالوصال ، في صباح يوم الاحد ، حوارى العزبة ، مثقلة بمياه الاستحمام ورغاوى الصابون .
فى هذا الصباح ، يقول عبد الستار لستهم .
ــ ماتيجى تاكلى يابت .
العاطفة المبتورة الوجه ، تهدهد أفكارها . تدغدغ احساسها بعبد الستار .
ــ ياخويا أنا فاضية .
فى هذا اليوم ، سيكتب كتاب صابرين ، وكتب الكتاب يحمل لعبد الستار احساسا حادا بالزمن . احساسا بأنه قد كبر ، وكلها سنة واحدة ويصبح جدا . احساس ينوء به كاهله ، يثقله بالمرارة ، بالحسرة على مافات من ليالى العمر . يشعر عبد الستار ، هذا الصباح ، والحارة مكنوسة ، مرشوشة بالمياه النظيفة ، بنوع جديد من الغربة ، ستتزوج صابرين ، يكتب كتابها ، رجل آخر جديد ، قد لا تعرفه ، لكن مين عارف . عبد الستار نفسه لا يدرى كيف بدأت الامور .

لم ينس عبد الستار ، فى هذا الصباح ، أن يمر على دكان ابو الفتوح ، كى يستعير منه الكلوب الخاص بدكانه . عبد الستار لم يطلب ذلك بكلمات محددة ، وانما وقف أمام البنك ، فرك يديه ، خرجت من فمه أجزاء من كلمات متآكلة ، محفوظة . وطلب منه الكلوب . ويعنى هذا ، ان دكان أبو الفتوح سيغلق ليلا ، وان فتح فسينار بلمبة جاز نمرة عشرة . « ذهاب هذا الكلوب الى أى مكان فى العزبة - باستثناء سراى الحاج هبة الله - يعنى أن هناك فرحا ، أو عزاء ، او موعد للتحقيق فى نزاع ، ويكون وجود الكلوب ، بنوره المنفرد ، فى أى منزل ، مشارا للدهشة ، والتساؤلات » .

فى اللحظة التى وجد فيها عبد الستار أن أبا الغيط يهتم به ، يتلكأ الى جواره ، عند الجسر ، حتى منتصف الليل . يخصه بنوع جديد من الحنان ، يرمى له تحية الصباح ، بسمة المساء ، يسأله عن الصحة والعافية . يحدثه عن دور المياه ، ثمن المحصول ، حسابات الحاج هبة الله المنيسى . فى هذه اللحظة ، بدأ الفأر يلعب فى عب عبد الستار ، خامره شعور لذيذ ، طارىء ، لم يحس به من قبل .

- والله يابا عبد الستار ، أنا باعتبرك زى والدى .

يقول عبد الستار :

- يا أبو الغيط احنا كلنا لبعض .

يدور الحديث ، يبدأ ، ينتهى ، يتشعب ، يطرق كل ما يخطر على البال . وعند لحظة معينة . ينتظرها عبد الستار ، يخشاها أبو الغيط . يبتلع الصمت الاخرس كل محاولات خدشه ، يفترش الحياء المسافة بينهما . يحسان معا باحساس حاد بالغربة ، بالرغبة الصادقة فى أن يعرى كل منهما نفسه ، ويقول كل ما عنده ، أبو الغيط الان جالس ، يفرك يديه من الغيظ ، يرمى قطع الطوب فى مياه الترعة الهادئة . يثير ارتطامها بسطح المياه صوتا هادئا ، لا يخدش الصمت . لا يحدث ثغرة ولو بسيطة فى جدار السكون . تموجات المياه فى الترعة تبدأ صغيرة ، تتسع ، تتكسر على الشاطىء ، تتوه بين أعواد النجيل الخضراء .

أبو الغيط يقول :

- ما باليد حيلة .

يقولها هذه المرة لنفسه فقط ، لا يسمعها عبد الستار الجالس الى جواره .

تناول عبد الستار افطاره .

ـ شيلي الاكل يابت . اقبلت عليه باسمة . قال لنفسه ، وهو ينظر الى السماء ، من خلال دائرة غير مسقوفة فى سطح داره : الحمد لله ، اللهم لك الف حمد يارب . قالت له ستهم بعذوبة وهى تحمل الطبلية :

ـ بالهنا والشفا .

كان عبد الستار ، يريد أن يفرغ من تناول طعامه بسرعة ، فأمامه من الاعمال الشيء الكثير . واهم هذه الاعمال أن يذهب الى الحاج هبة الله المنيسى ، لا يدرى ماذا سيقول له ، لابد وأن يعرف الحاج هبة الله ماذا سيتم ، لابد أيضا من حضوره . عدم حضوره معناه ، هنا فى العزبة ، ان فى الامر شيئا .

ـ والناس سمعة وسيرة ياعبد الستار ياخويا .

يمر عبد الستار على كل الدور ، الحقول ، مدارات السواقى ، مفارش القطن ، يذهب الى دميسنا ، يدعو كل الناس .

ـعقبال عندك ياسيدى ، النهاردة تشرف عندنا ، تشرب قهوة .

لا يحدد الوقت ، فالافراح تقام عادة ، فى لحظة سقوط الليل ، يحمر وجه عبد الستار ، يكمل القصة .

ـ عقبال البكارى يا ابو صابرين .

لم ينس عبد الستار ، بعد أن تناول افطاره ، أن يلبس جلبابه الصوف ، والشراب الاحمر المخطط ، والجزمة ام استك . لم ينس أيضا أن يلبس لبدة صوف لا يرتديها الا فى العيد الصغير او الكبير . قبل أن يخرج ، وقف على باب الدار . وظلال الشمس مدممة بالاسى ، قال لستهم :

ـ لو عزتى حاجة ابعتى للزناتى ، هوه فى الحوض القبلى .

صابرين ، كانت خائفة ، حيرى . فى صدرها انفعال ما ، لا يمكنها تسميته ، لم تشعر به من قبل . كانت تتصور أن هذا الصباح صباح غير عادى . لم يحدث مثله من قبل . قد لا ترى مثله بعد ذلك ابدا . ساعة الفجر ، والديك ينادى على سراية الحاج هبة الله : كا ، كا ، كا ، وامام المسجد يقول بصوت رخيم : الصلاة خير من النوم ، والنجوم ساهرة ، معلقة فى الفضاء اللانهائى

هبت صابرين من نومها ، عيناها مثقلتان بالسهاد ، شعرها الاسود منكوش ، معالم الجسد البض لا يعلن عنها الثوب الفضفاض الذى ترتديه . صعدت الى سطح المقعد العالى . فوجئت بأن كل شيء كالمعتاد ، لا يبالى بما يحدث لها ، لا يدرك معنى هذا اليوم . لم تكن ترغب فى شيء ، كانت تمضغ تحت ضرسها ، احساسا جديدا بالدهشة ، لا شيء غير ذلك . ذرات الضوء الرمادية تلف رداء الليل الاسود . كتل الظلام تسحب نفسها فى هدوء . تكتسب الاشياء وجودها من خلال قطرات الضوء . المزروعات ، البيوت ، الحوارى ، بحر الحقول ، تسقط عليه قطرات الضوء الرمادية ، فتصحو من النوم الليلى الطويل . حتى الشمس ، فى هذا الصباح ، غير العادى ، تشرق ببطء ، تخرج من جوف الافق ، خلف النيل البعيد . الناس فى الحقول ، أتوبيس الصباح الباكر لا يثير خلفه زوبعة من الغبار ، فأرض الجسر مازالت مبللة بقطرات الندى الرطبة . يصل الاتوبيس ، يتوقف ، يسير ببطء ، يطلق صفارته . تكتكات وابور الطحين فى دميسنا . موزع البريد ودراجته البالية . نساء العزبة المستحمات فى الصباح الباكر يذهبن الى الترعة ، يملأن الجرار ، يعدن بها ، يهمسن بكلمات تحمر لها الوجوه خجلا .. دكان أبو الفتوح ، المصلى ، كل شيء ، كل شيء ، فى عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، كما هو منذ زمان مضى.

كانت فى الحقل بمفردها ، وكان الهواء لينا رخوا . حقل أبو الغيط جاور حقلهم . وكان البرسيم أخضرا ، والارض تفوح برائحة الخصوبة . فجأة ، انطلق حمارهم ، جرى ، نهق . جرت خلفه ، دركت صابرين انها لن تلحق به ، توقفت .

ــ الحق يابا أبو الغيط ، الحمار انطلق .

قام ابو الغيط ، السعال يشق صدره . جرى . لم يكن أبو الغيط قد فكر فى صابرين كفتاة . أمسك بالحمار ، كان قد ابتعد عن الحقل كثيرا . ركبه ، عاد به اليها . بدت له قدماه وهو راكب طويلتين . شعر بمدى التعب الذى عاناه اثناء الجرى ، فأدرك ان الزمن قد تقدم به . وصل اليها . نزل من فوق الحمار . هبت نسمة هواء ، وكان يقف على مدار الساقية، فداعبت خصلة شعر خرجت من تحت الطرحة السوداء . وقف قبالتها .

ـ أنا تعبتكَ يابا أبو الفيط .

نظر اليها ، بدت جميلة . اكتشف ان لها نهدين ، يعلنان عن تفجرهما بشموخ ، ادرك أنه يتوسط وجهها شفتان دسمتان ، وبأن يدها المشققة جميلة ، وبأن عينيها سوداوين ورموشها طويلة .

ـ تعبك راحة ياصابرين .

ادرك ، وهو يعود الى حقله ، ان سنوات عمره التى مضت ، سراب لا قيمة له ، أيام فارغة المعنى .

ـ اللا انتى عندك كام سنة يابت ؟

تنفرج شفتاها الدسمتان عن بسمة ، تبدو أسنانها الجلوة البيضاء . يتغير لون النهار ، يصبح مذاقه أحلى من الشهد .

ـ وانا ايش عرفنى .

عبث بظهر الحمار ، تاهت نظراته فى الحقول البعيدة . نظر الى الوتد الذى تربط به الجاموسة . أدار لسانه فى فمه . غمس عينيه فى زرقة السماء الصافية . تابع بنظره حيرى سحابة بيضاء حتى غابت عن ناظريه . بحث عن كلمة ، كلمة واحدة . اى شىء يقوله الهواء الطرى يلمس جدار قلبه المتعب . نفسه تنتفض ، تنزف قطرات دم قانية . الصدر يعلو ويهبط . ربط الحمار . جلس بجوارها ـ نبش الارض بأصابعه .

ـ تعرفى ان ابوكى احسن راجل فى العزبة .

ـ انت الاحسن .

الصمت يجثم عليهما معا . ابتسمت . عاودته الرغبة فى البكاء . لاك لسانه فى فمه ، أداره ، لم يقل شيئا . بكوزين ذره ، او طبخة ملوخية ، أو قليل من البامية ، حصل على بعضهن ، فى حقل الذرة ، أو القمح ، أو تحت كل مايستر الانسان . ولكن من المؤكد انه لم يتبادل مع احداهن كلمة واحدة . كل واحدة تقول بصوت مرعوش وهى تقلع ملابسها : اوعى تقول لحد يا أبو الفيط . كل شىء يتم فى صمت كئيب . شعر ، وهو جالس بجوار صابرين بأشياء مبهمة . ولكنه حار ماذا سيقول لها . أى الكلمات يختار . تاهت نظراته على الحقول البعيدة . وابو الفيط فى هذا ، مثل كل من فى العزبة . قد يتعاركون يتقاذفون بالالفاظ ، يقولون النكات ، يغنون ، يكتبون الشكاوى . ولكنهم بمجرد أن يلتقوا بالمراة ، ينفردون بها ، حتى تتوه منهم الكلمات ، تضيع ، تجف حلوقهم ، تثقل جبهة كل منهم حبات

عرق باردة . ذلك أن قاموس حياتهم فقير ، ولا يعبر عن اتساع عواطفهم الحقيقى ، ونادرا مايعبرون عن عواطفهم ، حبا أو كراهية ، بالكلمات . ومفردات احاديثهم ، مبتورة ، ناقصة ، تخرج الحروف من افواههم الممتلئة بالاسنان الصدئة ، بتركيبات لغوية غريبة ، لاتعبر عن اى شىء بالمرة .

تسرب الوقت ، وابو الفيط جالس بجوار صابرين . تاهت الشمس ، سقطت مساحات اللون الرمادى المغبش . قام ، ود أن يقول لها انه يريد أن يبكى ، ولكن الدموع عزيزة ، لا تجود بها هذه الايام القحط .

فك رباط الجاموسة ، وضع البرسيم على ظهر الحمار . أوصلها حتى مدخل العزبة ، تركها وعاد بمفرده . شعر ، والليل يسقط على العزبة ، وعلى الحقول ودميسنا ، شعر بحزن جديد ، رعشة غريبة على القلب . ولكن الشىء المؤكد أن صابرين عندما عادت الى الدار ادخلت الجاموسة الى الزريبة ، انزلت البرسيم وسط الدار وفى عتمة المساء ، وهى تربط الجاموسة وتقيد الحمار ، فكرت لجزء من الثانية ، فى ابى الفيط . ولكن لاحساسها بأنه فى سن والدها ، وانه من عائلة المنيسى وان كان قد مال به الحال لاسباب لا تفهمها . لكل هذا ، فان صابرين لم تفكر فى الامر .

ابو الفيط فى هذا الصباح ، كان يدرك أكثر من صابرين ، انه صباح غير عادى . عندما تكسرت على سطح منزلهم أشعة الشمس الذهبية ، على عيدان الحطب ، على الفرفة الصغيرة فى أعلى منزلهم . ايقظته أمه :

ـ قوم يا أبو الفيط يا ابنى .

فتح عينيه ، كان ينام على بطنه . يحس خطوط الحصيرة الطولية تحت جلده . رفع راسه . لاك المعانى فى ذهنه . النهاردة كتب كتابك يا ولدى ، يا نقاوة عينى . عندما تفرج ، سيدخل عليها .

ـ لو كان ابوك عايش يا ابو الفيط .

ما زال يذكر ملامح وجه أبيه ، طوله الفارع ، وجهه المليح . جلبابه الابيض الفضفاض . سهراته فى منزلهم ، الجوزة ، ضحكته المجلجلة . شعر صدره الفزير ، صدره العريض . كم يحبه هذا الاب الغائب .

لا يعذب أبا الفيط الا مصير ابيه ، هل مات ، هل هو حى . ابن هو . أمه تقول له فى ليالى الشتاء عقب أن يشرب الدور الثالث من الشاى . كانت لوالده أرضا واسعة ، ضمت هذه الارض فيما بعد الى أرض الحاج هبة الله المنيسى ، بموجب مبايعة يشك الكل فيها ، وكان لهم منزل وأحلام عراض . لم يكن اسمه أبو الفيط . والادهم لم يعد الى بلده زبيدة ، الا جثة هامدة ، عاد اليها بقدميه ، أشياء كثيرة يا أبى ، اين انت . هو كل شيء فى هذه العزبة ، حكايات مبتورة، حزن خاص ، أسطورة بالغة الاسى . ولكنه ، وهذا مؤكد ، ليس أكذوبة وليالى الشتاء بحار من الهموم والاحزان ، والرحلة فى أعماقها رحيل بلا عودة . والادهم ، ذبح ذئبا ، اسود بلا شارة بيضاء ، أكل قلبه ، مضغ لحمه ، شرب دمه ، وبعد هذا انطلق فى جوف الليالى ، يصنع المعجزات ، الجوزة والمنقد والماشة ، ذكرياته ، ملابسه ، سريره النحاس الاصفر ، نظارة سوداء ، صديرى شاهى أصفر لامع . كل هذه الاشياء تحدق بأبى الفيط ، تعايشه ، تعيش معه . تقول له أمه ، انها أحبت أباه ، كان تلميذا فى البندر ، حتى الحــــزن فى عينيك يا أماه له طعم آخر ، شكل مغاير . سامح المنيسى . تلك حقيقة على الرغم من قولهم فى العزبة ، فى لحظات العصارى الندية ، والسماء فارغة زرقاء ، والمساء لم يحل بعد ، ان اباه من فرع آخر من عيلة المنيسى .

سامح المنيسى يعود من الاسكندرية مكرها . سامح افنـدى ، يخلع البدلة ، يرتدى جلبابا أبيض . يغني طوال الليل . لا تصـافح عيناه الحقول الا فى ساعة العصارى الندية . تحمل له لحظة سقوط الليل على العزبة والحقول والاشجار كآبة وحزنا يعبر عنهما بأحلى الكلمات . وكانت الحرب ، أتى المهاجرون من الاسكندرية ، دائمـا الاسكندرية يا أبى .

فى دميسنا ، انت امراة ، مدندشة بالذهب ، بيضاء ، بالغة الحلاوة غوت سامح ، اكلت بعقله حلاوة ، عرضت عليه فى احدى خـلوات الحب والشوق ، أن يبنى مصنعا للطوب .

ـ وماله ياست الكل .

باع سامح المنيسى جزءا من أرضه ، بنى مصـنعا للطوب على شـط النيل . كتب على واجهته : سننتصر على العدوان الثلاثى

الفاشم . وخسر سامح المنيسى كل شيء . وكانت بداية الخسارات يا ولدى قلبه .

ـ ياعم دا اتجوزها .

الارض تتناقص . فجأة ، وكانت الحرب قد انتهت ،اختفى سامح المنيسي ، مع المرأة الحلوة البيضاء . كان قد باع كل ارضه ، او هكذا زعم الحاج هبة الله المنيسي ، وقال ان معه مايثبت ذلك . لم يحضر سامح المنيسى بعد ذلك أبدا .

المرأة التى كانوا قد زوجوها له هنا فى العزبة ، أم أبى الغيط ، لم يحبها ، وكذلك لم يكرهها . لا تذكر أنه ابتسم في وجهها مرة ، ولو مرة واحدة . بل من المؤكد أنه لم يشعر بها . ولكنها احبته بكل قطرات دمها ، بكل ذرات لحمها .

والايام تمر وسامح المنيسي لم يعد . ذهب ولن يعود . قالوا انهم شاهدوه ، فى أحد شوارع الاسكندرية ، فى الجزء الاخير من الليل . نشرت صورته فى احدى الجرائد . سمعوا صوته فى الراديو . ولكنه لم يعد ، ابدا لم يعد . ترك ابنه أبا الغيط وهو لا يملك ما يعيش به . اعطاه عمه ، الحاج هبة الله المنيسي ، قطعة من الارض بالايجار كأى فرد آخر فى العزبة .

أبو الغيط ، فى هذا الصباح ، يشعر بمرارة غربته . كل شيء يطالعه بوجه كالح ، قديم . الوابور ، عدة الشاى ، الطبلية المقلوبة ، طشت ، ابريق الماء . شعر بفراغ فى قلبه .

ـ قوم يا ابنى .

سامح المنيسى لم يعد ، لن يعود . يصل ويسلم ليد والدى ، الحبيب ، فى اى مكان من العالم ، أيا كان ، ربما يعيش ، فى هذه اللحظة ، فى مكان ما ، ولكن اين هو . قام أبو الغيط ، كان يدرك أن هذا يوم رائع . سيذهب الى الحلاق ، الاسطى عبده ، يقص شعره، يحلق ذقنه ، يتعطر ، سيعطيه ربع جنيه بالكامل .

ـ الف نهار أبيض ياعريس .

ـ نعيما من بعد الموسى .

سيكون الربع جنيه الاول ولآخر مرة ، فهو يحلق بالمسانية . يعود أبو الغيط الى منزله . تعد له أمه مياها فاترة ، يستحم ، يقف فوق كرسى من الخشب وسط طشت من النحاس الاصفر ، يوضع عادة خلف الفرن فى حجرتهم الصغيرة . ويرفع بكوز صغير

كميات المياه ويتركها تنساب على ظهره وجسمه . بعد الاستحمام ، يرتدى ملابسه الجديدة . أحضرها أمس من الترزى فى دميسنا . يخرج والشمس تموت ، والنهار يلفظ أنفاسه . يذهب الى منزل عبد الستار . تزغرد الفرحة فى نفسه . يشعر بنفسه خفيفا ، ولكنه وهو فى الطريق الى منزل عبد الستار ، يدرك أن فى فمه ، بين أضراسه ، تحت لسانه ، طعم الحزن مرا ، مالحا .

جلس أبو الغيط قبالة أمه ، ليلة شتوية . صفحة السماء خالية من النجوم ، مساحة لانهائية من السواد المعتم . بينهما منقد فيه نار ، عليه براد شاى . كان قد فرغ لتوه من تناول طعامه . حوارى العزبة مليئة ببرك المياه وكتل الطين . فى مدخل الحجرة ، ترجد بلغته محملة بكتل من الطين . على مسمار فى الحائط مواجه له ، يعلق جلبابه النظيف .

أمه ، فى ليالى الشتاء ، وهى طويلة ، تحكى له كل شىء . تختم هذه الحكايا ، كل ليلة ، بالحسرة على مافات ، الحديث عن أبيه الغائب .

— مين يعرف هوه فين دلوقت .

مدت له يدها ، تناوله الدور الاول من الشاى . نظر اليها .

— اللا يا امه . .

انصتت اليه . سكت ، لم يكمل . افترش الصمت المسافة بينهما .

— ايه رايك فى صابرين .

بلع ريقه بصعوبة ، اكمل وهو يمد بوزه الى الناحية الاخرى :

— صابرين بنت عبد الستار .

الدهشة تمرح فوق وجهها . الانفعال فى صدرها . قطرات الدمع الدافئة تسح فى الاعماق ، تجول فى المآقى .

— ليه يا أبو الغيط .

نكس رأسه .

— ليه يا أبو الغيط . ليه .

نبش الارض بعود كبريت اشتعل وانطفأ . رسم عليها خطوطا بالطول وبالعرض ، كالخطوط التى فى حقله بعد قطع عيدان القطن الجافة .

— ليه يا أبو الغيط .

خرج صوته باهتا :

ـ أنا باقول . . .

السعال يشق صدره . هبات رياح الشتاء الليلى فى الخارج . خوار بقرة يأتى اليه من الزريبة المجاورة . رجل ينادى على ابنـــه الصغير الذى تاه منه فى الحقول .

ـ اوعى يا ابو الغيط ، اوعى . ابوك الله يرحمه من عيلة المنيسى . صابرين مرة واحدة يا ابنى .

لم يرد عليها ، ولكن من المؤكد ، انه كان قد وصل الى قـــرار حاسم . خرج من داره ، دارت عيناه فى صفحة السماء بحثا عن نجم واحد . ولكنها كانت معتمة . قبلى العزبة جلس ، وهو جالس ، قرر أن يتزوج من صابرين . قام من مجلسه ، سعل ، بصق على الأرض . شبك يديه خلف ظهره . عاد الى منزله . فى حجـــرته الدافئة ، قالت أمه لنفسها ، لو كان الحاج هبة الله المنيسي عنـــده بنت كبيرة . لم يرد . ابتلع الصمت كلماتها . مضغ ابو الغيط وهـــو واقف احساسا عميقا بالعجز . وكان خياله الاسود طويلا على الجدار المقابل .

ـ آهى برضه كانت تورث لكْ فدانين .

فجأة ، خرج ، نادت عليه أمه . لم يرد ، كان يجرى . استراح الى وسادة الاصوات الليلية ، المنبعثة من أعماق الليل .

فى صباح الغد ، أو فى مسائه ، عقب عودته من الحقل ، سيذهب الى عبد الستار . يطلب يد صابرين ، وليكن ما يكون . ندر على لو جيتى بيتى يا صابرين ، لالبسك فستان حرير زيتى ، واطلع معاكى سطحنا يوماتى ، وأفرجك على نجمة الفجـرية . هزه الانفعـــال . شق صدره سعال قاس . أمسك صدره بيده . تكور الى الامام . تعجب ، وهو يرنو الى السماء ، صفحتها المعتمة . لم حرم نعمة البكاء .

بدأ كل شيء يتضح ، بدات العزبة تتكلم . ابو الغيط يلف ويدور حول منزل عبد الســــتار . يفرض نفسه على الزناتى . وقفته مع عبد الستار عند الجسر تطول . والحب ، هنا ، فى عزبة الحـــاج هبة الله المنيسى ، لا ينفصل عن بقية الاشياء . بل هو جزء من تصورهم للحقل ، ودور المياه ، ومحصول القطن ، والجمعيــــة التعاونية . ابو الغيط فى الصباح الباكر يقف عند الموردة ، تمـلأ

صابرين الجرة ، تضعها على النجيل الاخضر . يعلن جسـدها الفائر عن نفسه ، فى انثنائها كى تفسل قـدميها ، وتحك كعـوبها . تقول له : والنبى تشيلنى الزلعة . يستريح الاسى فى صدره على وسادة الصوت الاملس . تزغرد الفرحة فى أعماقه الحزينة . يقول لهـا والبخار يتدافع من فمه مع الكلمات :

ـ أى خدمة ياست الكل .

يقترب منها ، يطالعه الصدر الناهد ، الرموش الطـويلة ، طولها ، يقسم هو على ذلك ثلاث أشبار فلاحى . أبو الفيط يساعد عبد الستار فى الحقل . يسلفهم جاموسته ، بقرته ، حماره . فى أيام الحرث والرى يروى لهم ارضهم . بين القلبين يا اهل العزبة قصة مزروعة ، هوى مكتوم ، غرام مفروش بالعذاب . أبو الفيط ، وهـو مريض ، يحمل ذات صباح ، محراثا كبيرا . يخرج به من منزل عبد الستار ، يتجه الى الحقل ـ أبو الفيط يسهر عند عبد الستار حتى بعد منتصف الليل ، خلال كل هذا ، لم يملك أن يوجه لصابرين كلمة واحدة .

فى ساعة القيلولة ، تحت مساحات الظلال المتآكلة ، فـوق مدار الساقية ، يقولون كل شىء ، يلعبون السيجة ، يتمددون على الارض . يضعون قوالب الطوب تحت رءوسهم . يحلمون . يصحون من نومهم المتقطع وقد استدارت الشمس ، فذهبت عنهم مساحات الظلال . يصحون ، يجدون انفسهم فى عين الشمس . وفى لحظة سرمدية ، يزرق العالم فى نظره ، يتحول الى لون رمادى قاتم . يحتـويه فى صدره المـريض . يحاول وظلال الاشياء قد صارت أقـرب الى الطول . يحاول أبو الفيط ان يقول ما بنفسه . ولكنه لا يجرؤ ، تسكته الدهشة .

تحدث كل الناس ، فى العزبة ، عن ابى الفيط . حتى الحـاج هبة الله المنيسى ، عرف كل شىء ، أمر واحد كان يثقل فؤاده ، فى كل ليلة تمر ، انه على الرغم من اتساع العزبة ، لم يكن يجـد فيها من يحدثه ، من يقول له أنه حزين . وانه لم يستطع طوال هذه المدة أن يقول لصابرين ، ولو كلمة واحدة .

صابرين كانت فى دهشة .

لم تدرك ، فى بداية الامر ، حقيقة مايحدث . أم أبو الغيط فقط ، هى التى ارتفعت فوق سطح هذه الامور . قالت ان سامح المنيسى

سيعود . لن يرضى عن هذا الزواج . ستعود له أرضه التى سرقها أخوه . عندئذ لابد وأن يتغير كل شىء . حتى اسمه لن يكون أبا الفيط رغم كل هذا ، فان أبا الفيط ، كان صادقا فى نيته . سواء أعاد سامح المنيسى ، أم لم يعد ، لن تكون سوى صابرين .

كان ابو الفيط يمسك بالمحراث فى صباح ندى ، وكان الهواء رخوا لينا . كانت الارض السوداء التى يشقها بالمحراث تشى بالخصوبة ، وتفوح من بين حبات الطين رائحة محببة الى نفسه ، رائحة الخصب . صابرين تسير خلفه ، ترمى حبات الذرة المنقوعة فى المياه ليلة البارحة فى الارض ، توقف ابو الفيط . شد الجاموسة والبقرة من مقودهما . وضع الفرقلة على كتفه الايسر . مسح حبات العرق الدافئة بيده ، هبت نسمة هواء صباحية باردة فأكدت فى خياشيمه معانى الخصب ورائحة الارض والماء والشجر . استدار الى صابرين . أشعة الشمس الذهبية تتكسر فى ليونة على رموشها الطويلة ، ورمش عين الحبيب ثلاث تشبار فلاحى .

ــ صابرين .

لم ترد ، اطرقت ، صافحت نظراتها سواد الارض المحروث .

ــ انتى عارفة طبعا أن انا ...

لم يكمل ، صمتت . لم تكن تدرك حقيقة شعورها ، هل تحب أن يكمل كلماته . يصمت . اجتاحت صابرين مشاعر غريبة ، يأس متراقص كأنه الاغماء .

ــ انتى عارفة أنا باجى عندكو ليه .

قالت بسرعة ، وكانت الالفاظ تتناثر من فمها :

ــ علشان صاحبك الزناتى .

ــ لا والله العظيم ، وسيدى احمد الرفاعى ، دا انا أصلى باجى انتى عارفة ، ماهو ..

استدار فجأة ، قال :

ــ عه ، حى .. ياللا بينا .

وكانت الكلمات ، تنزلق من فمه ، لا تترك وراءها أثرا ما .

ذات ليلة ، لا يذكر ابو الفيط عنها ، الا أن قمرها كان مبتور الوجه وقف ابو الفيط أمام دار عبد الستار . صفق بيديه :

ــ ياساتر .

تذكر ، وهو على الباب ، والظلام مخيف ، ان صدره مريض ، وان والده ، سامح المنيسى لو كان موجودا لعالجه . تذكر أيضا انه

صابرين الجرة ، تضعها على النجيل الاخضر . يعلن جسـدها الفائر عن نفسه ، فى انثنائها كى تفسل قـدميها ، وتحك كعـوبها . تقول له : والنبى تشيلنى الزلعة . يستريح الاسى فى صدره على وسادة الصوت الاملس . تزغرد الفرحة فى أعماقه الحزينة . يقول لهـا والبخار يتدافع من فمه مع الكلمات :

ــ أى خدمة ياست الكل .

يقترب منها ، يطالعه الصدر الناهد ، الرموش الطـويلة ، طولها ، يقسم هو على ذلك ثلاث اشبار فلاحى . أبو الفيط يساعد عبد الستار فى الحقل . يسلفهم جاموسته ، بقرته ، حماره . فى أيام الحرث والرى يردى لهم ارضهم . بين القلبين يا اهل العزبة قصة مزروعة ، هوى مكتوم ، غرام مفروش بالعذاب . أبو الفيط ، وهـو مريض ، يحمل ذات صباح ، محراثا كبيرا . يخرج به من منزل عبد الستار ، يتجه الى الحقل ــ أبو الفيط يسهر عند عبد الستار حتى بعد منتصف الليل ، خلال كل هذا ، لم يملك أن يوجه لصابرين كلمة واحدة .

فى ساعة القيلولة ، تحت مساحات الظلال المتآكلة ، فـوق مدار الساقية ، يقولون كل شىء ، يلعبون السيجة ، يتمددون على الارض . يضعون قوالب الطوب تحت رءوسهم . يحلمون . يصحون من نومهم المتقطع وقد استدارت الشمس ، فذهبت عنهم مساحات الظلال . يصحون ، يجدون انفسهم فى عين الشمس . وفى لحظة سرمدية ، يزرق العالم فى نظره ، يتحول الى لون رمادى قاتم . يحتـويه فى صدره المـريض . يحاول وظلال الاشياء قد صارت أقـرب الى الطول . يحاول أبو الفيط أن يقول ما بنفسه . ولكنه لا يجرؤ ، تسكته الدهشة .

تحدث كل الناس ، فى العزبة ، عن ابى الفيط . حتى الحـاج هبة الله المنيسى ، عرف كل شىء ، أمر واحد كان يثقل فؤاده ، فى كل ليلة تمر ، انه على الرغم من اتساع العزبة ، لم يكن يجـد فيها من يحدثه ، من يقول له أنه حزين . وانه لم يستطع طوال هذه المدة أن يقول لصابرين ، ولو كلمة واحدة .

صابرين كانت فى دهشة .

لم تدرك ، فى بداية الامر ، حقيقة مايحدث . أم أبو الفيط فقط ، هى التى ارتفعت فوق سطح هذه الامور . قالت ان سامح المنيسى

سيعود . لن يرضى عن هذا الزواج . ستعود له أرضه التى سرقها أخوه . عندئذ لابد وأن يتغير كل شيء . حتى اسمه لن يكون أبا الفيط رغم كل هذا ، فان أبا الفيط ، كان صادقا فى نيته . سواء أعاد سامح المنيسى ، أم لم يعد ، لن تكون سوى صابرين .

كان ابو الفيط يمسك بالمحراث في صباح ندى ، وكان الهواء رخوا لينا . كانت الارض السوداء التى يشقها بالمحراث تشى بالخصوبة ، وتفوح من بين حبات الطين رائحة محببة الى نفسه ، رائحة الخصب . صابرين تسير خلفه ، ترمى حبات الذرة المنقوعة فى المياه ليلة البارحة فى الارض ، توقف ابو الغيط . شد الجاموسة والبقرة من مقودهما . وضع الفرقلة على كتفه الايسر . مسح حبات العرق الدافئة بيده ، هبت نسمة هواء صباحية باردة فأكدت فى خياشيمه معانى الخصب ورائحة الارض والماء والشجر . استدار الى صابرين . أشعة الشمس الذهبية تتكسر فى ليونة على رموشها الطويلة ، ورمش عين الحبيب ثلاث تشبار فلاحى .

ــ صابرين .

لم ترد ، أطرقت ، صافحت نظراتها سواد الارض المحروث .

ــ انتى عارفة طبعا أن انا ...

لم يكمل ، صمتت . لم تكن تدرك حقيقة شعورها ، هل تحب أن يكمل كلماته . يصمت . اجتاحت صابرين مشاعر غريبة ، يأس متراقص كأنه الاغماء .

ــ انتى عارفة انا باجى عندكو ليه .

قالت بسرعة ، وكانت الالفاظ تتناثر من فمها :

ــ علشان صاحبك الزناتى .

ــ لا والله العظيم ، وسيدى احمد الرفاعى ، دا انا أصلى باجى انتى عارفة ، ماهو ..

استدار فجأة ، قال :

ــ عه ، حى .. ياللا بينا .

وكانت الكلمات ، تنزلق من فمه ، لا تترك وراءها أثرا ما .

ذات ليلة ، لا يذكر ابو الفيط عنها ، الا أن قمرها كان مبتور الوجه وقف ابو الفيط أمام دار عبد الستار . صفق بيديه :

ــ ياساتر .

تذكر ، وهو على الباب ، والظلام مخيف ، ان صدره مريض ، وان والده ، سامح المنيسى لو كان موجودا لعالجه . تذكر ايضا انه

دخل مستشفى المركز ، ارتدى الجلباب الابيض ، تحمل الرائحة ، والطعام الذى لا طعم له ، وخرج قبل أن يشفى .

ــ مبروك الخروج .

ولكن صدره ، فى ليالى الشتاء ، خاصة فى الجزء الاخير من الليل ، تأتيه الازمة .

ــ هاتى الحبوب يا امه .

ولا ينصلح حاله الا بعد شروق الشمس .

أتاه صوت من الداخل :

ــ اتفضل يا ابنى .

دخل .

ــ سلامو عليكو.

ــ وعليكم السلام ورحمة الله .

جلس .

ــ اتفضل الشاى .

ــ ازاى الحال .

ــ كويسين ، عال ، الحمد لله .

مال على عبد الستار .

ــ أنا عايزك فى موضوع كدا .

يتنحنح عبد الستار .

ــ وماله ياابنى .

النور الباهت يثقل وسط الدار .

ــ افرشى المندرة يابت .

انسحبت صابرين الى الداخل ، قال أبو الغيط بحنان ، والمرض دائما ، يرقق الانسان ، ويسحب عليه مسحة من الرقة والبهاء :

ــ تعالى يا زناتى ، انت اخويا .

دخلوا ، جلسوا على الحصيرة الجديدة .

ــ اعملى دور شاى يابت .

الصمت طويل مرهق .

ــ وحدوه .

عينا أبى الغيط ، المنكسرة الاهداب ، تحدقان فى لا شىء .

ــ لا اله الا الله .

راح ينظر الى الارض ، الجدران . قال عبد الستار :

ـ خير يا ابني .
وعاد الصمت بتكاثف من جديد .
ـ أصلي يابا عبد الستار ، طبعا الزناتي اخويا ، صابرين أختي ، وانت والله العظيم زي أبويا بالضبط .
وتكلمت حبات العرق فوق جبينه .
ـ طبعا يا ابني ، انت دلوقت واحد مننا .
لاك لسانه في فمه ، أدار وجهه .
ـ انا طالب القرب منك في ...
عبد الستار ، رغم انه كان يتوقع هذا ، منذ زمان مضى ، الا ان عينيه رمشتا في دهشة .
ـ هيه ، قلت ايه .
انا ، الا تدري ، انا ابو الفيط ، أبو الفيط سامح المنيسي . لا أعرف بالتحديد اين ابي . امي في المنزل ، الحاج هبة الله المنيسي عمي . أقسم لك ، كان أبي ، سامحه الله ، رجلا عظيما ، غنيا ، ارضنا كانت هنا ، أحلامنا ، حكايانا ، همساتنا الوردية . ولكن والدي باعها ، أنا أبو الفيط سامح المنيسي . احب صابرين ، اطلب يدها . صدري مريض . سيعود والدي ذات مساء . قد يخرج من الارض ، يهبط من السماء ، يأتي من الحقول الواسعة ، تقدمت بي الايام ، هدني الاعياء . لا أخاف الا السعال اخر الليل . أحب الارض والقمر ولون الماء ورائحة الشجر . أحب هسيس ورق النبات عندما يحتك ببعضه البعض في الليل عقب أن تهب الرياح البحرية .
ـ طيب ، هوه الحاج هبة الله ، حايوافق ؟
أبو الفيط لا يدري مايقوله . طعم الفرحة في حلقه ، يذبح ، تضيع كل معالمه ، يذوب في لحظة الاسى المباغتة . الصمت الكثيف كضباب ساعة الصباح . ابو الفيط يقول ، من خلال ضباب الصمت :
ـ أنا حر .
ـ دي الارض ارضه .
ـ أنا حر ، دي ارضي . ارض أبويا .
أحلامنا وئدت هناك ، بكيناها ، رثيناها . وهو يقول هذه الكلمات ، شعر بطعم الدموع المالحة في حلقه . دخلت ستهم

بالشاى . سمعت بعض حديثهم . وضعت يدها على فمهـا تحاول أن تزغرد . قلبي كان حاسس يا بنتى عمره مايكدب عليه . منعها عبد الستار . أحس ابو الفيط ، وهو جالس ، وظله طـويل ، اسود ، على الحائط ، ومداسه عند باب المندرة ، وكباية الشـاى مازالت ممتلئة ، والبخار الابيض يلفح وجهه ، وعبد السـتار يلف سيجارة بيديه ، وهو يبلهـا بريقه . احس بالدموع تجول فى ماقيه خرجت منهم .

ـ خبر ايه يا راجل . دى صابرين واحدة بس . يا اخى حرام عليك .

ذات اصـيل ، والهواء باهت الرائحة ، والارض شراقى ، عطشى ، والحاج هبة الله المنيسى يجلس امام السراية . ذهب اليـه ابو الفيط .

ـ سلامو عليكو يابا الحاج .

سلم عليه . كان الحاج هبة الله يجلس على كرسى من جريد النخل . اما ابو الفيط فقد جلس على الارض . الحاج هبة الله ينقر على الكرسى بدقات مكرورة . الصمت يثقل عليهما معا . رائحة الجفاف تؤكد فى انف الحاج هبة الله ان الارض عطشى ، وان دور المياه لم يأت فى موعده . أبو الفيط يتنحنح :

ـ بأقول يابا الحاج .

رمشت عينا الحاج فى دهشة . تذكر ما كان من والد ابى الفيط فاجفل . لابد وانه اتى هذا المساء ، كى يطلب خدمة . والا ما سبب حضوره .

ـ انا بأقول يابا الحاج ان انا كبرت . وعقبال صفوت بيك .

لم يرد عليه ، اغمض عينيه . نظر الى ابى الفيط . افصح عما بداخلك يا ابن المزواج . عربد كثيرا ، جرى ، بحث عن لحظـة الشوق الملتاع ، لحظة الوجد ، الوصال ، الكشف ، التخلق الاول . دار فى الارض ، صال وجال ، قام بالرحلات السبع ، غاص فى بحار التيه . ترى هل وصل الى السر .

ـ قصدك ايه يا ابو الفيط .

ـ قصدى . قصدى .

تنزلق الكلمات ، تتوقف ، تهب رائحتها .

ـ قصدى انى نويت اكمل نص دينى .

الحاج هبة الله يضحك . يهتز جسمه .
ـ مبروك .
يسأله والشمس تتوه ، تختفى خلف الترعة الهادئة :
ـ ومين بقى العروسة .
ـ صابرين ، صابرين بنت عبد الستار .
الدهشة تبتلع انفعال الحاج .
ـ قلت ايه يا ابني ، صابرين ، ودى تناسبك يا ابن المنيسى .
ـ كل شىء قسمة ونصيب يابا الحاج ، عقبال أولادك .
ـ وعايز منى ايه .
خرج صوت أبو الغيط مرعوشا :
ـ قصدى تساعدنى ، أنا برضه ابن اخيك .
لا يدرى أبو الغيط حقيقة ما حدث ، مضغ احساسه بالهوان ، شرب هزيمته ، استقر عزمه على ترك العزبة . ولكن صابرين ، حبه لها ، رغبته فيها ، الحنان الدافىء الذى بلا حدود ، الحب الذى يفترش اركان الكون الاربعة . بدت له أعوامه الثلاثون كخرافة ، وهم ، اكذوبة . تذكر مساحات الارض التى يقال انها ملكه ، وبيعت للحاج هبة الله ، فكور قبضة يده ، يتهدد بها حتى نسمات الهواء في الجو . تذكر انه مجرد مستأجر لارض هبة الله ، وان الناس تقول عنه أنه من فرع ثان من العائلة .

تساءل أبو الغيط ، فى آخر الليل ، وهو يستعد للنوم ، ويضع المخدة تحت رأسه ، ينام على ظهره ، يواجهه السقف بالخشب والبوص كقدره . يسحب البطانية الصوف الخشنة . يغمض عينيه . تساءل : ماذا يحدث لو ترك العزبة . ابو الغيط وهو فى طريق عودته الى منزله . مزق الضوء الصغيرة من النوافذ الضيقة الابواب المواربة . فى أعماق الظلام ، يحس أبو الغيط بالاشياء بشكل مبهم ، كمساحات غامضة . كان يود أبو الغيط أن يعرف ، وهو يدفع باب منزلهم ، صرير الباب الحزين ، تصافح عيناه زبالات الضوء الشاحبة ، الباب يستريح على الحائط ، كان يود أن يعرف : هل ربح أيامه التى مضت ، أم انه قد خبرها .

ادرك أن أيامه غير محتملة ، وان فراغها شاحب . وكان هو يقول :
ـ سا الخير يا امه .

مطفأ النظرات ، باهت الصوت .

لم يسال أحد منهم صابرين رايها . والدها عابس . الزناتى ، اقربهم الى نفسها ، لم يقل لها اى شيء . أمها فقط ، وهى أمام الفرن ، وحبات العرق تلعب على جبينها المتورد . قالت وهى تعطيها الرغيف المبطط :

ـ أبو الفيط كلم أبوكى .

تاهت نظراتها .

ـ هيــه .

داخلها احساس لا تدريه .

ـ يعنى ايه يا أمه .

أمهـــا ترص العجين . تنفض يدها من الدقيق ، تقــوم ، تجلس .

ـ يعنى عايزك يا صابرين ، عايز يتجوزك .

يتحرك فى أعماق صابرين ، شيء محدد هذه المرة ، أدركته ، تحسسته . لم تعلق على الحديث بكلمة واحدة . لو كانت ابنة لاحد الذين يملكون بعض الارض لحجبت . منعت من الخروج فور الكلام عنها وطلب يدها ولكن ما باليد حيلة .

يوم السبت ، يعود أبو الفيط من السوق ، يحضر لها كل شيء من هناك ، منديل ، طرحة ، زجاجة كولونيا ، فاكهة . يأتى الى منزلهم .

ـ يا ساتر .

يدخل ، يجلس فى وسط الدار . الفرحة تمرح فوق وجهه . يضع المنديل المحلاوى على الارض ، يفتحه .

ـ شوفى ياصابرين .

تذهب اليه ، تقول لها أمها :

ـ يا بت شوفى الجدع جايب لك ايه .

بابتسامة باهتة ، بلهــاء ، تقتـــرب منه ، فى يده ما أحضره من السوق .

ـ عجبتك الحاجات دى يا صابرين .

لا ترد عليه ، تنحدر الدموع فى المآقى ، يرتفع صدرها ، يعلو ، يهبط ، تدير راسها . تجرى الى الداخل .

ــ ربنا ما يحرمها منك يا أبو القيط .
فى لحظة العصارى الندية ، والهواء رخى ، هادىء ، ركب الاسطى عبده ، حلاق العزبة ، ركوبة الوسية . امسك بها عبد الستار من مقودها ، صعد الاسطى عبده على سور الجسر ، ركبها . امسك الاسطى عبده بالمقود فى يده ، رفع يده الاخرى .
ــ طيب السلامو عليكو يا عبد الستار .
عبد الستار لا يرد عليه ، وانما يقول له :
ــ والنبى تقول للماذون ع الحالة بالضبط ، انت عارف . دول ربك هوه اللى عالم حايدخلوا امتى .
قال الاسطى عبده ، بصوت مرتفع ، لانه كان قد ابتعد عنه :
ــ حاضر .
قال كلاما اخر ، بعثرته رياح ساعة العصارى ، تاهت حروفه ، لم يدرك عبد الستار منها شيئا .
فى لحظة الغروب ، والشمس تختفى جاره وراءها خيوط النور ، وظلال الاشياء قد تاهت معالمها . عاد الاسطى عبده ، ومعه المأذون فالمأذون عنده ركوبة ممتازة . عند راس الجسر ، نزل من على حماره .
ــ السلام عليكم .
ــ الكل يقبل يديه .
ــ العزبة نورت يا سيدنا .
اخذ احدهم الحمارة الى دوار الوسية . سار المأذون بخطى بطيئة . اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه يارب العالمين . صدى الكلمات فى صدورهم كالاسى ، كالحنين النائم فى حبة القلب ، كالحزن فى الصدور .
ــ آمين يارب .
أمى ، أين أنت يا زناتى ، لا أحبه ، لا أكرهه . ورحمة سيدى أحمد الرفاعى . لم تأخذوا رأيى . الا تعرف يا أبى أن عامى الثالث عشر لم يكتمل بعد ، وان السرور ، ذلك الذى تتحدثون عنه ساعة العصارى ، لم يعرف طريقه الى قلبى من قبل . فى الصباح يا أبى ، عندما أذهب الى الترعة ، عند المنزل ، فى الموردة ، اغسل الزلعة من الطين العالق بها ، اديرها فى المياه . تتكسر موجاته الندية على ساقى البيضاء ، املؤها . استدير ، أعيد لف الحواية ،

اصلح من وضع الطرحة على راسى . أسير مع زميلاتى . فى نقطة غائمة على الافق البعيد ، يبدو شبح ابو الغيط . تتناهى الى سـعلته تحملها الرياح ، تبعثرها ، تهمس الفتيـات . يقلن ما لا اسمعه :

ـ دا خطيب صابرين .

ليه يا زناتي .

ـ دا قد ابوها فى العمر .

عندما يقترب منى ، يتكلم معى ، لا أشعر بشىء بالمرة . ما رغبت فى الزواج يا ابي .

جلس المأذون فى آخر المنـدرة من الداخل . صافحت عينا ابو الغيط الوجوه المتعبة ، الملابس النظيفة ، الابتسامات التى تقطر حبا ، الايادى الخشنة ، الاقدام المشققة . فى باب المندرة ، وفى جزء من وسط الدار ، كانت البلغ والاحذية والجزم أم استك تتناثر فى شكل جميل . الصمت ، النظرات المبتورة . لن يدخل ابو الغيط هذا العام . ولكنهم يغنون فى الخارج ، يقولون ما يقال عادة فى ليلة الدخلة ، ما يقال عقب أن تخـرج المحرمة مثقلة بالدماء الحمراء . قال المأذون :

ـ وحدوه .

ردت اصواتهم :

ـ لا اله الا الله .

دارت اكواب الشربات ، لبس المأذون نظارته ، رتل آيات من القرآن الكريم . قال احدهم :

ـ أبو الغيط ما بتخيرش عن السامعين .

يغنون فى الخارج : البنت جات اتمرجحت ، خدت عقله وروحت. تأتي الاصوات . مبروك يا عريس . السجائر في الايادي ، اعواد الكبريت تشتعل ، تنطفىء بنفحـة سريعة لاهثة من الافواه ، يسلكون بها بعد ذلك أسنانهم ، ينبشون ببقاياها الارض تحتهم ، يرسمون فيها حقولا ، وقنوات ، وجسورا ، وسواقى ، اشياء سريعة ولكنها مليئة بالوعود الرائعة . يلتمع فى عيونهم شىء ما ، حزن كل منهم على انفراد . وسط كل هذا ، حرصوا على شىء واحد ، أبقوا على مكان خال بجوار المأذون ، فرشت فيه فروة ، وضع مسند جديد ، هذا المكان مخصص للحاج هبة الله المنيسى ،

ولكنه حتى الان لم يحضر . كانوا يغنون . يارب استر من عيون الحارة ، الا جدعان حارتنا غيارة . صابرين فى الحجرة الداخلية ، تجلس ذاهلة لا تدرى ما حولها . تجلس الى جوارها بنات العزبة . الفرحة لن تكتمل ، لن تدخل الا بعد عام ، عامين ، ثلاثة أعوام ، من يدرى . يقرصنها فى فخذها . يقلن لانفسهن ، قرصتك فى ركبتك ، الحقك فى جمعتك . وهو شىء تتفاءل به الفتيات . وفجاة ، وصلت امها ، حاولت ان تزغرد ، خرجت الزغرودة ، مرة المذاق . حاولت أن تغنى ، رفعت يديها الى وجهها ، غطت عينيها المليئتين بالدموع ، قالت بصوت شائه الخلقة ، كتبوا كتابك يانقاوة عينى . ارتفع نشيجها . بكت صابرين كما لم تبك من قبل .

لا ترغب صابرين ، فى هذه اللحظة ، الا أن تصعد على سطح المقعد العالى ، تجلس هناك ، تناجى الليل ، تهمس لنجومه الساهرة ، تحدق فى ظلمة الليل . تنتظر حتى تشهد مولد الفجر على صفحة الليل . فى المندرة ، احس ابو الغيط بالحزن ، لدرجة انه سعل سعالا مشروخا عندما سمعهم يغنون : يا ما انت صغير ، حلو يا عريس ، يا ما انت صغير ، حلو يا عريس .

ذات ليلة شتوية ، وحبات المطر كالدموع تثقل جو الحارات . لبس ابو الغيط جلابيته النظيفة . سار ، فى يده العصا الابنوس ، من خلفه وعلى مسافة منه تسير أمه . يمرون بجماعات الرجال .

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام .

ـ كتر خيركم .

تنظر أمه ناحية النسوة فى أماكن جلوسهن .

ـ سا الخير يا ستى .

تسلم عليها ، يقبلنها ، يعزمن عليها . يستأنفان سيرهما . أمام منزل عبد الستار ، وقف أبو الغيط ، صفق بيديه :

ـ يا أهل الله يا ساتر .

ـ اتفضلوا .

دخلوا ، شاهدت صابرين امه ، سلمت عليها ، جلسوا جميعا . شعر ابو الغيط بطعم السعادة فى نفسه ـ توقع من امه ان تتحدث عن الستر ، ورضا الله ، والمحصول ، وربما سيرة الحاج هبة الله .

ولكنها ، ورغم رفضها لهذه الزيجة من البداية ، دخلت فى التفاصيل ، المهر ، مؤخر الصداق ، العزال ، التنجيد .
– يا ألف مرحب يا ستى الحاجة .
أمه ترد ، أمه تشعر بالحنين لسامح المنيسى ، الرغبة ، فى رؤياه ، التصميم على انتظاره ، قالت قبل أن تحضر .
– انت فين يا سامح ، تعالى شوف ابنك عمل ايه .
بيد ان احساس أبو الفيط بالهوان قد استقر منذ سنوات فى أعمق أعماقه ليس بسبب صابرين ، قد يكون بسبب الارض ،العمال طول النهار عند غيره ، حديث أهل العزبة الذى لا ينتهى عن والده، معاملة الحاج هبة الله المنيسى له .

***

على صداق وقدره : ثلاثون جنيها مصرية لا غير .
الحالى منه مبلغ : عشرون جنيها مصريا لا غير .
والمؤجل منه مبلغ : عشرة جنيهات مصرية لا غير .
وذلك بشهادة كل من :
الحاج هبة الله المنيسى ، وأبو الفتوح مصطفى .

***

قال المأذون :
– قوم يا اسطى عبده ، اسأل العروسة توكل مين .
قام الاسطى عبده ، دخل ، حليق الذقن ، منمق الثياب ، أبيض البالطو .
– اوعوا يا بنات .
يكركمن بالضحكات التى تقطر صفاء .
– عقبالك يا اسطى عبده .
ترد ستهم :
– قطع لسانكو ، بعد الشر دا معاه سنيورا .
يرفع البالطو ، يستند على الفتيات حتى يصل الى صابرين . الدموع على وجنتيها الحمراوين ، صدرها الناهد ، يعلو ، ينخفض فى ليونة ، يقترب منها .
المساء يتسلل الى الحجرات ، نبش الدجاج على السطح ، نور اللمبة فى وسط الدار ، صوت الرجال فى المندرة .
– وحدوه .

ـ لا اله الا الله .
نظرت صابرين الى السقف ، الخشب والبوص والسناج .
ـ توكلى مين يا بت .
صوت الرجال يقومون فى المندرة .
ـ هات المسند يا بت .
لابد وان الحاج هبة الله قد وصل .
ـ ازيك يا ولد يا ابو الفيط .
صوته الخافت الخارج من سقف الحلق .
ـ الله يسلمك ..
الحاج يبارك . عبد الستار يكرر النداء .
ـ المسند الجديد يا ولد .
يقول الحاج :
ـ لا ولا مسند ولا حاجة .
الاسطى عبده ، بأصابعه الطرية يزغد صابرين :
ـ ما تردى يا بت ، توكلى مين .
صوت أمها فى الظلام :
ـ يعنى مين غيره ، دا احنا من غيره مانسواش بصلة .

وصابرين ساهمة ، حزينة ، تعد البوص والخشب فى سقف لقاعة . يحيط بها بنات العزبة . شاهدتها أمها بين الفتيات ، ابتسمت ، تاهت الفرحة ، تحركت شفتاها بلا ارادة . الدموع تسح ، تنزلق دافئة ، تتلاشى بين التجاعيد ، تنزلق على ذقنها ، تزيد اخضرار الوشم أسفل ذقنها .

ـ ربنا يعدلها لك يا بنتى .

وعينا صابرين ، كعينى طائر ليلى ، يفترشهما الحزن ، يداعبهما الاسى ، فيهما بقايا دموع . وصل الاسطى عبده الى المندرة ، أنظاره تصافح الوجوه . صوت البنات فى الخارج .

ـ الورد كان شوك ، من عرق النبى فتح ، عريسنا يا ذوق .

لم يحمل مجىء الحاج هبة الله المنيسى لابى الفيط سوى ذلك الاحساس الحاد بالهوان ، ذبح كل افراحه ، قذفها ، بعثرها .

ـ مبروك يا عبد الستار .
ـ الله يبارك فيك يابا الحاج .
ـ مبروك يا ولد يا ابو الفيط .

غمغم بكلمات لا يفهم معناها . قال الحاج :

ـ امال فين العروسة .

وقف عبد الستار ، تقدم الى وسط الدار :

ـ تعال يا بت يا صابرين .

الدموع على كرسي خدها الاحمر ، رموش عينيها الطويلة مبللة بقطرات الدموع . حضرت ، خلعت شبشبها الاحمر . لف يدها في الطرحة السوداء . سلمت عليه . قبلت يده .

قال المأذون :

ـ الحمد لله الذى احل النكاح ، وحرم السفاح . والصلاة والسلام على رسول الله سيد الملاح ، الذى ازال ظلام الشرك بنوره الوضاح . أما بعد . ان الله تعالى ، أمر بالنكاح وهو سنة الاسلام . فقال تعالى في كتابه العزيز ، وهو اوضح الكلام : يا أيها الناس اتقوا ربكم ، الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . وقال عليه السلام : تناكحوا ، تناسلوا ، فانى مباه بكم الامم يوم القيامة . (تأكد الجميع أن الدخول مؤجل ، ككل المسرات والافراح التى تأتى بها المصادفات) . انطلقوا يحققون في غنائهم كل ما يعجزون عنه .

ـ هو ضربنى بالدبوس ، وانا ضربته بالدبوس ، طول الليل يحضن ويبوس ، يا وعدى .

ـ يا بخت اللى طال حبيبه • يا بخت اللى طال حبيبه •

يد أبو الفيط ، فى يد عبد الستار ، عليهما معا منديل ابيض .

زغرودة ، طلقة نارية ، لابد وأن الزناتى هو الذى أطلقها .

قال المأذون :

ـ زوجتك ابنتى وموكلتى ، بكتاب الله وسنة رسوله ، على مذهب الامام الاعظم أبى حنيفة النعمانى ، وعلى الصداق المسمى بيننا . ومقدمه . ومؤخره .

يغنون فى الخارج :

ـ يا عريس ابقى ارتاح ، خلى حتة م الجناح .

يا عريس ابقى افتكر ، خلى حتة م الدكر .

قال المأذون لابى الفيط :

ـ قبلت منك زواجها لنفسي ، بكتاب الله وسنة رسوله ، وعلى الصداق المسمى بيننا .
أبو الفيط يردد كلمات المأذون .
يغنون فى الخارج :
ـ هو اللى خطبها ، هو اللى نقاها ، دا دايب فى هواها .
تمتمات الجالسين :
ـ مبروك ، ألف مبروك ، ربنا يتمم بخير ، عقبال عندكم .
قبض والدها العشرين جنيها . طبقهـــا لاصغر حجم ممكن ، أعطاها لستهم . ذهبت ستهم بسرعة الى صـــــحارتها فى حجرة المعاش . نظرت حولها أكثر من مرة ، بسملت ، حوقلت . فتحت الصحارة ، فى كوز صفير ، وضعت المبلغ (يوجد عادة فى الصحارة ، اشياء تفوح منها رائحة الزمن ، عقد زواج ستهم من عبد الستار ، امساكية قديمة لشهر رمضان ، ورقة حساب من دكان أبو الفتوح . وابرة ، وفتلة خيط ، وقليل من الفلفل الاسمر ، واقماع السكر وأبكاو الشاى ، وعروسة حصان من الحلاوة ، اشتراها عبد الستار منذ سنوات للزناتى وصابرين فى مولد النبى) .
بعد أسبوعين ، ســـيذهبون ، الى سوق يوم السبت فى نكلا العنب . حيث يشترون لصـــــابرين ، ثوب الزفاف ، وقمصان وطرحة ، وحلق من الذهب ، وابريق وحلل وطشت من النحاس وطبلية وصحارة مثل صحارة أمهـــا . وبالباقى من النقود يقومون بتنجيد مرتبة ، ومخدتين ولحاف من القطن .
يغنون فى الخارج :
ـ عريسنا واصـــل ، واصل ، وبأمر الله واصل . عريســـها واصل .
عبد الستار يأخذ القلم ، يبله ، يوقع بخطه المتعرج .
ـ مبروك يا عبد الستار .
الحاج هبة الله المنيسى يقف .
ـ عن اذنكو بقى . مبروك يا أولاد .
يقفون جميعا .
ـ مع السلامة يابا الحاج .
ـ عقبال سى صفوت .
فى أعماق الليل ، خرج أبو الفيظ بمفرده الى الحوض القبلى .

لم يكن يدرك سببا واحدا لخروجه ، ولكنه خرج . عندك كام سنة يا صابرين . قال له الطبيب فى مستشفى المركز . أنت عندك ربو . سعلة حادة تشق صدره . قد يعود أبوه ذات ليلة . وصل الى الحوض القبلى . لم يكن هناك سوى القمر معلقا فوق العزبة كأنه المصباح المنسى ، والنجوم ساهرة مبعثرة على صفحة الليل .

تذكر أبو الفيط ، انه بلا أب ، فحزن على نفسه ، وان السعال يشق صدره ، فأدرك انه لا شيء له قيمة . أتى اليه ، هنا ، صوت من يغنون فى منزل عبد الستار . استدار الى العزبة . الحارات الليلية كأنها الانهار السوداء . أسلم نفسه لظلام الليل ، صمته .

صوت من يغنون فى منزل عبد الستار ، يخرج حزينا ، به بحه . يخرج من أفواههم وكأنه خارج من جوف الزمن اللانهائى . يغنون . يصنعون الافراح . يرنون بعضهم الى البعض بنظرات مثقلة بالدهشة . كأنهم لا يصدقون أنفسهم . يتبادلون النكات . بيد انهم جميعا ، ربما فى جزء من اللحظة . وسط الضحكات الصافية ، يتوقفون جميعا ، يبلع كل منهم ريقه ، يقول لنفسه قبل أن يقول للغير :

ــ اللهم اجعله خيرا .

فالضحك الكثير فى حياتهم يعنى أن مصيبة ستحدث لهم .

العزبة ساهرة تغنى .

والليل يجثم على أنفاس العزبة ، وكانت الترعة هادئة ، وادعة ، وسنانة . وكانت المياه ساكنة ، كالمداد ، كالحزن ، أو ربما كالاسى الاملس الناعم . وأبو الفيط ، وسط هذا الكون الفسيح ، الحقول ، السماء ، النجوم ، القمر ، الفناء الشاحب ، كان وحيدا .

القتل

الخميس ١٣ من ابريل ١٩٦٧

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الصحة العمومية
ترخيص بالدفن

مكتب صحة : دميسنا ـ مركز ايتاى البارود ـ بحيرة
اسم المتوفى : صابرين عبد الستار
سنه : ٢٠ سنة .
رقم القيد بالدفتر :
جهة الدفن : دميسنا .
التاريخ : ١٩٦٧/٤/١٣ .

طبيب الصحة
امضاء

هكذا يشرق الصباح ، كل صباح ، على عزبة الحاج هبة الله المنيسي ـ فى آخر الشهر العربى ، والليل مساحات من العتمة ، والنجوم ساهرة متعبة ، مبعثرة على صفحة الليل ، تنبع ذرات الضوء من مكان ما ، تقف على حافة الليل الابدية ، تثقب النجوم تتجمع فى بقع ضوئية ، متناهية الصغر ، يخبو لمعان النجوم ينطفىء بريقها . تتكسر عليها ذرات الضوء ، يتحول لون الليل الرمادى المعتم ، الى لون فضى .

أما فى منتصف الشهر العربى ، يكون القمر ، فى لحظة الشروق ، فضى اللون . تتداخل الاشياء ، تتحول غبشة القمر الساجية الى لون فضى من ناحية الشروق ، حيث توجد عزبة الموردة . تأتى مساحات الضوء اللامعة ، تفترش الافق الشرقى ، تصطبغ بلون ذهبى .

تأتى الى عبد الستار ، سواء أكان فى أول الشهر أم فى منتصفه ، أصوات كل صباح . لتؤكد فى خياشيمه ، رائحة الشروق ، معنى الميلاد الجديد ، القدرة على احتواء شى بكر ، يبلغ اقصى درجات النشوة . وعلى الرغم من كل ما يعانيه عبد الستار فى كل ليلة . على الرغم من كل هذا ، على الرغم من لحظات

الاحتضار البطيء ، الحزن الذى بلا حدود ، ظلام كل ليلة . قان عبد الستار ، بمجرد أن تصافح عيناه نقاط الضوء الفضية ، يتكسر على أذنيه صياح الديكة ، ثغاء الحيوان ، أصوات الابواب تفتح ببطء ، صوت تساقط قطرات المياه على الوجوه فى المصلى القريب . قول من يتوضأون : لا اله الا الله ، اللهم أقبل صلاتنا .

يذهب عبد الستار الى أقرب مدار ساقية ، الضباب يغلف الاشياء ، غالبا ما تكون الساقية القبلية التى تروى الحوض القبلى . تحت شجرة الصفصاف ، يقضى حاجته . يسترجع ، وهو فى جلسته هذه ، مغامرات الليلة الماضية ، رحلته الطويلة فى أعماق الليل . هبات النسيم ، اللصوص ، الحقول ، السحاب الداكن .

يتجه عبد الستار الى القناة الصغيرة المؤدية الى الساقية . يخلع البندقية من كتفه ، يضعها على النجيل الاخضر ، يبعد فوهتها عن التراب المبلل بقطرات الندى . يقعى على القناة الصغيرة ، يمد يديه . يملؤها بالمياه الباردة ، يرفعها ، يترك المياه الرطبة تنساب على وجهه ، تتخلل الشعيرات النابتة البيضاء فى ذقنه . تجرى بين التجاعيد والغضون التى يمتلىء بها وجهه .

يشعر عبد الستار ، فى كل الاحوال ، بانه يولد من جديد . يشعر أن هناك ، بين جنبيه ، فى حناياه ، حيث توجد تلك المنطقة المفعمة بالامل والرجاء . يولد انسان جديد ، يخرج من بين طيات الحزن ، حزن هرم عجوز . أما مغامرات الليل ، الانتظار ، فضاء الصمت الحقولى ، كل هذا ، يتبخر ، يتوه مع كل قطرة باردة من مياه القناة الصغيرة .

فى كل صباح ، عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، يخرج الرجال . فى عيونهم بقايا نوم من الليلة السابقة . فى الجسم كل تعب اليوم السابق . يرتدى كل رجل ، فى حجرة نومه المعتمة ، المثقلة بأنفاس الليل الطويل . جلبابه الزفير على الملابس الداخلية التى كان ينام بها . ينظر أسفله كى يتفادى أطفاله النيام على الارض . يفتح باب حجرته ، صوت تنفس الاطفال الصغار يؤنس وحشة الحجرة المفروشة بطيات الظلام . يستقبله وسط الدار هواء رطب . يخرج دون أن يغسل وجهه . يركب مداسه . فى مكان ما من الحقول

القريبة من العزبة (ولكل منهم مكانه المختار) يقضي حاجته ، يذهب الى المصلى ، يغسل وجهه ، قدميه ، يتوضأ ، يتمتم أثناء الوضوء بآيات من القرآن الكريم . ينطق الكلمات متآكلة الحروف . يصلون ..

حتى ان كان عنده في المنزل ضيف من بلد آخر (وهذا كثيرا ما يحدث) . فانه يستصحبه معه في الصباح الى المصلى . اما الذين يقضون الليل بين الاحضان الطرية ، فى لحظات كبرياء نادرة الحدوث . يحققون فيها وجودهم الحقيقى ، فى حجرات دافئة ، ووسط كلمات الشوق . هؤلاء الرجال ، لا يذهبون الى المصلى مباشرة ، انهم يتجهون الى مكان بعيد عن العزبة ، يخلعون ملابسهم ، يضعونها على الشاطىء . يقفز كل منهم فى الترعة ، يعومون . يضع كل منهم أصابعه فى أذنيه . يغطس تحت الماء :

ـ اللهم نقنى مما بى مثلما ينقى الثوب الابيض من الدنس .

لا يفهم أحد معناها ، ولكنهم فى الصباح الباكر ، ووسط مياه الترعة ، يرددونها كشرط أساسى للطهارة . يخرجون من المياه ، يرتدون ملابسهم ، يذهبون الى المصلى .

ـ التحيات المباركات ، والصلوات الطيبات لله .

عند عودتهم الى المنازل . الدخان يخرج من النوافذ الضيقة ، الابواب الموارية ، مياه الاستحمام تنتشر عليها رغاوى الصابون البيضاء ، تفترش الحوارى ، تبدو المرأة عادة ، على سطح دارها ، تطلق الطيور من أقفاصها ، أو تحضر قليلا من الحطب . أو تكون على باب بيتها ، تدلق مياه الاستحمام ، تبدو على وجهها دهشة ، فرح ، رغبة ، تعبير عبقرى لا يشاهده الرجال الا فى هذه اللحظات .

أبو الفتوح يفتح دكانه .

ـ يا فتاح يا عليم ، يا رزاق يا كريم .

الحاج هبة الله المنيسى يتمشى على الجسر العريض بالقرب من القنوات الصغيرة (يحرص الكل فى ذلك الوقت ، على عدم المرور تحت الاشجار ، خاصة أشجار الصفصاف ، فهى تدمع قطرات الندى الباردة . ويستمر ذلك حتى الضحى بشكل يذكرهم بحبات المطر) .

فى هذه اللحظة ، من كل يوم ، تصحو الاشياء ، الجسر العريض ، السراية ، التندة ، تمنح فرصة الحياة ، تحت قطرات الضوء

اللامعة ، تتكحل بنتف من الضوء الفضى ، تتنفس الاشياء ، تشرق ، تصحو ، تبدأ يومها الجديد . تواصل تنفسها البطىء ، البالغ اقصى درجات البطء .

هذا الصباح ، يحمل للزناتى ، احساسا جديدا ، حادا ، قاسيا عليه ، شعورا مدببا بالحزن . بيد انه حزن عجوز . بالامس ايقظته أمه من نومه . بقى نائمـــا فى مكانه على الحصيرة . رفع عينيه . السقف الواطىء ، البوص ، الخشب ، الجـدران ، الزناتى نائم على ظهره ، تملأ عينيه ظلال الفراغ . وكان قلبه ، فى هذا الصباح ، ثملا بالاحزان . قام . فعل كل ما يفعله كل صـــباح . وهو يصلى ، فى اللحظة التى كان يقول فيها :

ـ سمع الله لمن حمده .

كان قد وصل الى قرار . لابد وان يقوم بتنفيذه هذا اليوم . قرر ايضا الا يخبر احدا بذلك . ولا حتى امه او ابيه . عليه ان يواجه الامر ، مهما كان ، بمفرده . عاد الزناتى الى المنزل ، كان والده جالسا على الحصيرة الصغيرة المتاكلة الاطراف .

ـ صباح الخير يابا .

ـ صباح النور .

جلس ، احضرت امه الفطار . شرب الشاى . الدور الاولّ ، الدور الثانى .

ـ انت حاتزوى الارض النهاردة يا زناتى .

ارضنا عطشى يا أبى ، ولكن قنـــاتنا ، ترعتنا ، نضب معينها . الى متى الصبر يا أبى . المياه ، كل مياه العالم ، لن تروى جفاف أرضنا ، أقسم لك . بقرتنا الحلوب حملت ، أصبحت عشرا . لا أعرف من أين . لم أذهب بها الى طلوقة الوسية . ولكنى حتى الآن لم ادر كيف تم ذلك . ارضنا عطشى ، فى الحقول نبات أصفر باهت الخضرة ، شائه الخلقه . حتى عندما تحاول أن تشم رائحته ، لن تجد الخصوبة ، ولا الارض ، ولا رائحة الماء . تاتى اليك رائحة قريبة من روائح المخازن الرطبة المعتمة ، رائحة العفونة .

قام الزناتى من مجلســـــه . فى الزريبة ، حل رباط البقــــرة والجاموسة والحمار . على باب دارهم ، ركب الحمار ، امسك بيديه مقود البقرة والجاموسة . منع الحمار من ان يسرع فالبقرة عشر . فى طريقهم الى الحقل ، لا ينسى أن يمر على الموردة كى يسقى البقـرة

والجاموسة ، يلقى تحية الصباح على كل من يمر عليهم . فى طريقه الى الحقل وجد الترعة مثقلة بالمياه . ادرك انه سيروى الارض من هذا اليوم . الشيء الغريب ، انه لم تبتهج نفسه ، فى هذا الصباح، لمرأى المياه ، ولا لراحة البخار الابيض المتصاعد منها ، والذى يبدو واضحا كلما سطعت الشمس على العـزبة . خلف الزناتى العزبة وراءه ، استقبلته الحقول المترامية الاطراف ، مساحات من السواد لارض قلبت حديثا تمهيدا للزراعة القـادمة ، مساحات أخرى من الخضرة الرائعة . بيد ان كل هذا تكسر على جدار نفسه الخارجى ، لم يؤثر فيه . تذكر انه شـاهد صابرين ليلة الامس وسط دارهم المعتم . كانت مساحات الظـلال وكتل الضوء تروح وتجيء أمام عينيه ، كشبح فى الظلام العميق .

والليل سر كل هذه المصائب هنا ، مرتع الرغائب المجنـونة ، متاهة الحزن الدافىء . كانت صـابرين تمشى فى اعياء ، خالقة بذلك فى أعماقه عبئا أشد ثقلا من كتل الحديد ، وبرودة أعمق من برودة قطع الثلج . تذكر الزناتى هذا ، رفع رأسه ناحية السماء ، فراغ عذب ، زرقة بالغة الصفاء ، نتفة صغيرة من السحاب تعبر قبة السماء فى كسل وفتور . لا شيء يا صابرين . بقرتنا الحلوب عشر يا أبى .

أكمل الزناتى سيره ، حا ، حا ، يصل أخيرا الى الحقل . على اليمين منه حقل أبو الفيط ، ياه ، كيف نسيه هذا الصباح . انه الآن يذهب الى عمله ، فى جناكليس . يغنى الانفار ، يصفقون ، يضحكون ، ولكنه أبدا همه على رأسه . منذ أن ذهب أبو الفيط مع الترحيلة والزناتى يقوم بالعمل فى حقلـه بدلا منه ، يزرعـه ، يرعاه . الذى ادهش الزناتى ، فى كل مرة حضرت فيها صابرين الى الحقل ، ان حقل أبو الفيط لم يكن يثير فى نفسها أى شيء ، مساحة من الارض ولا شيء أكثر من ذلك . مع ان الزناتى كان يتصور ان هذه المساحة من الارض تعنى بالنسبة لصابرين أشياء كثيرة ، أبو الفيط ، الزواج ، بيت العدل ، الفرح المؤجل لاجل لا يمـكن تسميته . ولـكنها كانت فى كل مرة تمر فى بلاهة ، فى لامبالاة .

وقف الزناتى على راس الحقل . خلع جلبابه ، الصـديرى ، تأكد أن المحفظة بداخله (لا يوجد فى المحفظة ، عادة ، نقود كثيرة ، فيها قروش قليلة ممسوحة الكتابة ، لا تعرف كيف يحصل عليها .

ولكن المحفظة عادة تكون مليئة بالاوراق الغير مهمة ، طلب القرعة ، خطاب قديم متآكل الاطراف وملزوق من المنتصف بورقة لزق صفراء ، أتى اليه من قريب ، نأت به الايام ، يحمل الاشواق ، ويعتب على الزمان ، اعلان انتخابات قديم ، أوراق قضية ميراث ، صورة لامرأة عارية نشرت فى احدى المجلات ووجدها الزناتى بجوار سراى الحاج هبة الله المنيسى . تجد أيضا فى كل محفظة حجابا مكتوبا بالحبر الاحمر . ما أن يمسك به الزناتى ، او أى فرد آخر ، حتى يتذكر الله ، والجنة والنار ، والعفاريت ، والشيخ عباس ، وبلده البعيد ، والسفر اليه . ويقسم فى الوقت نفسه الا يفعل الحرام ، حتى ولو أتى موسم الذرة . بعيدانه الطويلة ، كلا ، لن يفعل أى شىء) .

يكمل الزناتى خلع ملابسه . يبقى فى نهاية الامر عارى الرأس ، حافى القدمين ، يرتدى قميصا وسروالا على اللحم . الملابس التى خلعها أسفل الصفصافة مباشرة ، يضع فوقها طوبة كبيرة حمراء .

وقف الزناتى ، نظر خلفه ، قاس طوله على الارض ، فأدرك أنه طويل . نظر الى نفسه ، له صدر عريض ، شارب يحبه كما الحياة . مكتوب على ذراعه الايمن : الزناتى عبد الستار ، دميسنا - بحيرة ، عزبة الحاج هبة الله المنيسى . يبدو لعينى الزناتى هذا الصباح بريق جديد عليه ، احساس مبهم ، عزيمة غائمة ، رغبة لا يدرى فحواها . ذهب الى الساقية ، فك رباط الجاموسة ، نظر فى القناة التى تمد الساقية بالمياه . حمل فأسه ، من فوق رأسه امتدت سماء ربيعية ، باردة ، زرقاء ، تغطى الحقول ، كأنما هى راحة يد يكسوها الحرير . فكر الزناتى فيما حدث لصابرين :

- أنا ذنبى ايه يا أمه والله العظيم ما لى ذنب .

فكر فى قول امه ، وهى تنبش وسط الدار بعود كبريت :

- دا المكتوب . المكتوب على صابرين يا زناتى .

أدرك الزناتى فى اللحظة التى كان يقيد فيها الجاموسة الى الساقية ، كى تدور وتدور . وهو يقول لها :

- عه ، عه ، عه .

بالتحديد ، وهو يغمى عينيها كى لا تدوخ من كثرة الدوران ،

ادرك ان نفسه مفعمة بنوع من اللعنة ، الصلاة الصامتة ، الالم الدفين . واحتواه ، وهو يبتعد عن الساقية ، والمياه تبدأ سيرتها البطيئة نحو الحقل ، احساس مائع ، غريب ، شائه الطعم ، فارغ المعنى ...

حمل الزناتى فاسه ، وضعها على كتفه الايمن . سار يعبد للمياه طريقها الى الحقل . راح ينظر الى المياه الداكنة اللون وهى تسير ، تشاغل بالنظر الى حديد الفأس ، خشبها ، الارض من تحته ، القناة التى تمتلىء بالمياه . سمع انين الساقية ، نهيق حمارهم .

ـ دا مكتوب صابرين ، مقدرنا .

قبض على الفأس بكل قوته . راح يعبد طريق المياه بغيظ ، بعنف .

ـ صباح الخير يا زناتى ، خلى عنك يا راجل .

لجزء من الثانية ، لم يرد ، انتصب واقفا ، أمسك فأسه ، مسح عرقه بيده . خيل اليه ، ان هذا الرجل يعرف ما حدث لصابرين ، اضطرب من بسمته . لابد وانه يعرف كل شىء :

رد بصوت جاف :

ـ كتر خيرك يابو فتحى .

فى هذا الصباح ، فى منزل عبد الستار ، عقب أن خرج الزناتى الى الحقل . خرج عبد الستار . ذهب الى مكتب المعاون كى يسلمه البندقية والطلقات العشر كما يفعل فى صباح كل يوم . يكون المكتب مزدحما بطالبى الحاجات . يتقدم عبد الستار الى الباشكاتب، يعطيه البندقية والطلقات العشر (ما يحزن عبد الستار ، حقيقة ، فى كل مرة ، انه لا يملك دفترا معه ، يوقع فيه الباشكاتب بالاستلام مثلما يوقع هو كل مساء) .

يتلكأ عبد الستار بعد التسليم قليلا ، يسير ببطء ، واضعا يديه خلف ظهره ، رافعا بهما جلبابه من الخلف حتى لا يتلوث بتراب الارض المبلل بقطرات الندى . عند الجسر ، يقف مع الواقفين ، يكتشف ، فى كل صباح ، ان الجسر بمجرد أن تشرق عليه الشمس يتغير تماما . تصبح له سحنة جديدة ، ملامح لم يعرفها فيه بالليل . لا ، لا . ان الجسر الذى يقفون عليه بالنهار شىء آخر ، غير الجسر

الذى يؤنس وحشته بالليل . يشعر عبد الستار ، فى بداية وقفته بنوع من الغربة القاسية ، ولكنه يندمج فى أقوامهم ، يصبح واحدا من هذه الكتلة الواقفة .

الذين يقفـون هنـا ، على الجسر ، كل صـباح . هم الذين لا يذهبون الى الحقول الا فى الضحى . قد يكون ذلك لانه لا توجد لهم حقول ، أو لان لهم أولاد كبـار ، يذهبون مبكرين بدلا منهم . أو انهم هنا ، ينتظرون خروج الحاج هبـة الله المنيسى من السراية لقضاء حاجة لهم . والحاج هبة الله المنيسى يخرج فى الثامنة والربع من كل صباح (ذلك انه بعد أن يتمشى قليلا فى الصباح الباكر ، يعود الى المنزل ، ليصلى ويفطر ويسمع نشرة الاخبار) . يخرج فى الثامنة والربع ، لدرجة أنهم يقـولون عنه فى العزبة ، انه تضبط الساعة عليه . بيد أن أحدا منهم لا يملك هذه الساعة ، سوى أمام المسجد وسـاعته جيب ، وأبو الفتوح وساعته يد . وسى عبـده الحلاق ، والاسطى الميكانيكى والباشكاتب . وأولا وأخيرا ، صفوت المنيسى . الذى يقسم كل أهل العزبة ، بأغلظ الايمان ان ساعته من الذهب الخالص ، وان ثمنها مائة وعشرون جنيها كاملة .

والحاج هبة الله المنيسى يتناول افطاره بالداخل ، ولكنه لا يشرب الشاى الا هنا على رأس الجسر . ما أن تأتى الساعة الثامنة والربع (يلاحظون ان ذلك يعنى أن يكون فى الراديو الصغير الموضوع الى جواره ، أقوال الصحف ، أما اذا حولت المؤشر ناحية صوت العرب فستجد اذاعـة فلسطين ، أما اذاعة الشعب فلا تكون قـد فتحت بعد) ...

يخرج الحاج هبة الله المنيسى من السراى ، يقترب منهم :

– صباح الخير يا أولاد .

يردون بكلمات باهتـة ، يقفون . يسرع عبد الستار الى مكتب الباشكاتب . يحضر كرسى من جريد النخل ، عليه فروة ، يضعه على رأس الجسر . يمسح الفروة .

– اتفضل يابا الحاج .

يقول الحاج هبة الله وهو يجلس :

– فضلك الله يا ابنى .

يجلس ، بعد قليل ، بعـد أربعة دقـائق لا غير . يحسبونها من

وضوح الرؤيا ، وامتدادات الظل ، وكمية البخار الخارجة من الافواه مع الكلمات . اربعة دقائق لا غير ، وتخرج فتاة صغيرة ، على يديها صينية نحاسية . على الصينية براد شاى أبيض وأكواب . تقف على مسافة . تقول بصوت طرى :

ـ خد الشاى يابا عبد الستار .

يذهب اليها عبد الستار . يأخذ منها الصينية . يهمس لها :

ـ صبحى لى على ستك الحاجة يا بت .

يعود اليهم ، يصب الشاى . فى اللحظة التى يرتفع فيها بخاره الاليف أمام عينيه ، فتحيط بالاشياء طبقة ضبابية لينة . تبدو له من خلال الضباب الدافىء ، صـــابرين ابنته ، عائدة وعلى رأسها الجرة ، تلمع فى ضوء الشمس الذهبى . تعود عبد الستار على هذا كل يوم . بعد أن يشرب الحاج هبة الله كوبين من الشاى . يبدا عبد الستار فى توزيع الشـــاى على الباقين (يلاحظـون أن الحـــاج هبة الله لا يشرب الشاى من دورين ، أو ثلاث أدوار . بل يشرب كوبين من الدور الاول ، ويقولون فى العزبة ان جماعة الحاج هبة الله يحتفظون بالتفل فى مكان نظيف ، لعمله مرة أجرى ، بعد ذلك) .

فى هذا الصباح ، عندما اقترب عبد الستار من الحاج هبة الله ، كى يقدم له الشاى . قال له الحاج ، والبخار الدافىء يروح ويجىء مع الكلمات :

ـ البنت ازيها يا عبد الستار .

قدم له الشاى ، قال الحاج :

ـ مش كويسة .

خرجت من فمه حروفا لم يدرك معناها . قال الحاج :

ـ اوعى حد يدرى بالخبر فاهم .

ثم اكمل بصوت واضح الملامح :

ـ ربنا أمر بالستر يا أولاد .

شعر عبد الستار بشىء حاد مدبب فى جنبه الايمن ، وقديما ، فى الزمان الاول ، فى ليالى الشتاء الباردة ، نصحوه بأن يضع لبخة دافئة على جنبه الايمن . تعدها له ستهم ، ينام على جنبه ، تربطها له فى مكان الالم ، يتحسسها بين الحين والاخر . تذكر عبد الستار، وهو يسمع هــذه الـكلمات من الحاج هبة الله ان الخمسين جنيها ما زالت عند ستهم . تذكر ايضا انهم لم يصرفوا هذا المبلغ رغم

شدة احتياجهم اليه . قد يكون ذلك بدافع الخـــوف ، الخجل ، الرهبة .

استيقظت صابرين من نومها ، مبكرة كعادتها منذ أن عادت من ايتاى البارود بعد العملية . ففى كل يوم . كانت تصعد الى سطح المقعد العالى ، تدير عيونها فى السماء الفارغة ، تظل هكذا ، حتى يخرج الزناتى أولا . تشاهده من مجلسها ، تشـعر بالحنين اليه ، بالرغبة فى الحديث معه ، احتوائه . يخرج والدها ومعه البندقية تعرف انه ذاهب الى الباشكاتب ، كى يسلمه البندقية . يذهب الى المصلى ، لا يصلى وانما ينام . يظل نائما هناك ، حتى تستدير الشمس على صفحة السماء . تصبح فى الناحية الاخرى ، تستدير أيضا ظلال الاشياء . لا ينام عبد الستار نهارا الا فى أيام الفراغ القاتلة ، المطوطة الساعات . أما عندما يكون هناك عمل فى الحقل ، فانه عند الضحى ، أو بعد ذلك بقليل ، يذهب الى الحقل ، يعمل مع الزناتى ، يشعر بالحنين الى النوم ، بالرغبة فى أن يستلقى على ظهره تماما ، يفرد قدميه على آخرهما ، يتحسس بباطن يده الخشنة ، الارض من تحته . تستريح زرقة السماء فى عينيه ، تكتسب معنى جديدا ، ولكنه يعمل حتى المساء .

صابرين ، منذ أن عادت من ايتاى البارود ، لم تجلس مع أبيها ، أو مع الزناتى . لم تتكسر نظراتها على وجه أبيها الملىء بالتجاعيد ، تسرح نظراتها الحالمة على صدره المفروش بالشعر الاسود ، لم تواجه اى منهما . فى الليل ، يجلسون حـول الطبلية ، تكون صـابرين جالسة على السطح ، الليل حواليها من كل ناحية ، تطل على وسط الدار . يأكلون ، الصمت فى كلماتهم أكثر من الكلام ، الحزن يفترش المسافات الصغيرة بين الوجوه والاجســــــاد . يفترش الحصيرة والطبلية . جو وسط الدار . لا تذكر صابرين ، انها منذ ان عادت من ايتاى البارود واجهت الزناتى ، واجهت عينيه الحادتين ، اللامعتى البريق . تحسست بطنها ، أحست بالفراغ اللذيذ . تذكرت رحلة ايتاى البارود ، والعملية ، والدكتور ، وكل شىء . تذكرت أيضا انها لا تضع ذلك الحزام الغليظ حول وسطها ، وان هناك فراغا مكان ذلك الامتلاء المتعب .

فى الليالى الماضية ، قبل أن تذهب الى ايتاى البارود ، وقبل

ان تفك ذلك الحزام الغليظ من وسطها . كانت تصعد الى سطح المقعد العالى . كأن الليل يفرد لها خده الاسيل ، تنـام على وداعته الرائعة ، تهمس له ، تشكو ، تبكى ، تقول ما يفعم النفس بالحزن ، ما يثقل الفؤاد بالعذاب . بيد أن الليل أخرس ، صامت ، لا يرد ، لا يقول اى شىء ، لا يجيد سوى الانصات .

شىء واحد كانت صابرين تدركه ، فى كل الاوقات ، وهى نائمة ، وهى فى غيبوبة اللحظة الجنسية العارمة فى أحضـان صفوت ، أو وهى تمضغ القلق والخوف والعذاب ، وهى تخبر أمها بما حدث ، وهى تلف وسطها بلاسة أخيها الزناتى ، وهى تذهب الى ايتاى البارود ، وهى جالسة فى قلب الاتوبيس ، وهى عنـد الدكتور . تدرك ، انه تحت السطح من تفكيرها ، تحت قشرة الوعى الرقيقة ، يرقد ذلك اليقين الغامض بأن الذنب ليس ذنبها . بل يتعداه الى ذلك الاحساس بأنهـا لم تستسلم لصفوت ، لم تنم له . بل ان الذى سقط ، سلم نفسه ، تاه وعيه فى تلك اللحظـة الرائعة شىء آخر بداخلها .

ـ دا المكتوب يا أمه ، أنا ذنبى ايه .

رعشة الحنين الى صفوت ، صفوت المنيسى بالذات . وفى كل مرة ، كانت تتوسد الاعماق منها ، رغبة عارمة اليه ، اليد الناعمة ، الذقن الحليق ، الشارب المنمق ، الشعر الحرير ، الجسد الممتلىء .

فى كل ليلة ، وهى بمفردها ، والصمت يصعد من وسط الدار ، مصممة الشفاة ، صوت اصطدام قطرات الشاى بالكوب الزجاجى . ظلال باهتة متكسرة ، غير محـــدودة الملامح للبخار الخارج من الاكواب . كان يتمطى فى أعماق صابرين ، شىء هائل رهيب . وكل هذا ناتج من ذلك الشعور الدامى بأنها مظلومة ، مسكينة ، لا حيلة لها ، هدها الاعياء وتقدمت بهـا الايام . صحيح انها ما زالت فى العشرين من عمرها (وقد يبدو هذا عمرا صغيرا ، ولكن كل من فى عمرها هنا قد تزوجن بل وأنجبن ، وطلق البعض منهن منذ مدة) .

فى هـذا الصـباح ، بعـد ان خرج الرجال ، نادت ستهم على صابرين :

ـ انزلى يا بت .

نزلت . تساءلت أمها :

ـ عاملة في نفسك كدا ليه يا صابرين .

وهي تنزل على السلم ، كان النهـار قد اتضحت معالمه تماما . تناهى اليها صوت آت من الحقـول ، غناء فتاة صغيرة . تذكرت صابرين ، لحظة سماعها للغناء ، أيامها البكر ، ساعة العصـارى ، غناءها في حقول القمح . والليل على طويل ، انا العليل ، موجود دواه ، بس الطبيب مرضاشي .

ـ انت مالك يابت ، دا نصيبك ، حاتعملى ايه ، دا حتى كويس اللى ابو الفيظ مش هنا .

لم ترد ، لقد تعلمت في الايام الاخيرة ، من ضمن الاشياء الكثيرة التى تعلمتها ، أن تدير لسانها الجاف في حلقها ، الذى أصبحت له رائحة كريهة ، سبع مرات . قبل أن تنطق الحروف الاولى من جملتها المبتورة ، المتفرقة الكلمات .

ساعدت أمها في أعمـال المنزل اليومية ، كنست وسط الدار ، الحجرات ، الزريبة ، لمت روث البهائم . رشت وسط الدار بمياه نظيفة . دارت بها الارض أكثر من مرة . داخت ، أحست بشيء كدبيب النمل في صـدرها . ولكنها ، لم تتكلم . بالامس فقط ، وجدت في نفسها الجراة على أن تشكو . جلست على الدرجة الثالثة للسلم :

ـ آه يانى ، ظهرى حاينكسر ، الحقيني يا امه .

تنهدت ، مسحت دموعا حارة ، لم تدرك شـيئا محددا بعـد ذلك .

في أعماق الليل . والرؤى متداخلة في بعضها البعض ، وصوت والدها يتكلم مع أمها . سمعت صوت الزناتى ، حاد النبرات ، مدبب الملامح .

ـ أنا بكرة حاجيب دوا لصابرين .

الصمت المفعم بلحظات العذاب . للوهلة الاولى ، خافت ، فهى تعرف الزناتي جيدا . ولكنها احست بعد ذلك بالحب العميق له . ودت أن تقوم من مكانها وتذهب اليه . خرج الزناتي . صـوت يدى والدها وهو يفركهما في يأس دلالة على التسليم :

ـ لا اله الا الله .

ـ والصبر فين يارب ، يا سيدنا ، يا شيخنا ، يا ايوب .

وصابرين ، في أعلى السطح ، تئن ، تتألم ، تشكو .

ذات صباح ، لا يذكر عبد الســتار ، الا أن شـمسه كانت باهتة

اللون ، خرجت صابرين من العزبة . مضى على ذلك الان ، خمسة عشر يوما بالتحديد . سارت صابرين ، يتوسد اعماقها خوف مبهم من المجهول . يسير أمامها والدها عبد الستار . فى صباح هـذا اليوم ، رقد أنداح بطنها ، وبدا كل شيء كامل الوضوح ، ولم تجد بدا من أن تخبر أمها . فى هذا الصباح ، قال لها والدها :

ــ قومي البسي هدومك يا بت .

توقف الزناتي عن مضغ لقمة كانت فى فمه ، قال وفضلات الطعام تتناثر مع الكلمات :

ــ رايحين فين يابا .

ــ لا ولا حاجة .

قالت أمه :

ــ بس رايحين لغابة تيبه البارود ، حايشتروا حاجات .

اكمل الزناتى مضغه ، لم يدخل هذا الكلام راسه . حقيقة ، لعب الفأر فى عبه . عبرت ذهنه ألف خاطرة ، تفتحت عيناه على فداحة الخطب . ولكنه صمم ، بعد ذهاب أبيه على معرفة كل شيء . انه الان يدرك ، ان ذهاب أخته الى سراى الحاج هبة الله المنيسى كان نحسا ، حذرهم ، ولكنهم سخروا منه . قالت أمه :

ــ دى أختك راجل ، هوه كل الطير اللى يتاكل لحمه .

خرج والده ، من خلفه خرجت صابرين . ادرك الزناتى ، وهو جالس ، ان اخته تسير ببطء ، وانها ثقيلة الخطى ، بطيئة الحركة . ولكنه لم يصدق ، قام يجرى الى أمه بالداخل ، أمسكها :

ــ فيه ايه .

ردت بصوت بالغ الحسرة .

ــ ولا حاجه يعنى حيكون فيه ايه .

هجم عليها ، أمسك بها ، ضغط على عنقها .

ــ لازم اعرف فيه ايه . حا أطلع وراهم .

بكت امه . سالت دموعها ، اهتز جسمها فى عنف .

ــ فيه ايه ، قوليلى .

قالت من خلال الدموع :

ــ يا ابني مافيش حاجة .

ــ لازم اعرف .

انهـــارت ، جلست بين يديه . اقترب منهـــا ، كم كبرت ،

تجاعيد الزمن واضحة الان تماما تطالعه ، الاخاديد تنفرس فى جدار وعيه . لاكت كلماتها بصوت تفوح منه رائحة الحسرة :

ــ يا ابني حا أقول ايه ، ربنا أمر بالستر . الستر .

تركها . توقف فى منتصف الدار ، يطالعه ، فى وقفته هذه رسم لادهم ، الرجل الحقيقى ، وقالهم لما نقتل عمى عملتوا ايه .

سألها :

ــ مين .

دهشت .

ــ قوليلى مين اللى عملها ؟

قالت وهى تقف :

ــ صفوت أفندى .

آه ، ابن الحاج الكبير ، لقد تم كل شيء اذن . نحن الفرقى . حضرة جناب دياوتللو العظيم ، المدير العام ، نحن الموقعين على هذا ، هذا كلامنا . وأسفل الكلام ، تلك اختامنا العزيزة ، قطع النحاس الاصفر المربوطة بفتل الدبارة لمحافظتنا القديمة المهترئة . جناب دياوتللو العظيم ، ممنوع تعذيب الحمير ، احباط الكلاب ، منع الحبيب عن الحبيب ، تأجيل أفراحنا الى أجل غير مسمى . جناب دياوتللو العظيم .

ــ حصل امتى .

ــ يوه ، من سبع شهور .

كيف ؟ يا سيدى يا أيوب . هجم عليها ، امسك بها :

ــ حصل ازاى .

كادت ستهم ، أن تموت فى يده . تركها وقد اتسعت مساحة البياض فى عينيها . سقطت على الارض ، لم تثر فى نفسه اية عاطفة . ركلها بقدمه . سار فى طريقه . فكر : انها الآن ذاهبة الى ايتاى البارود ، لابد وان والده ذاهب لكى يقتلها ، ويغسل العار بالدم . ضاع المعنى من حياته ، انهار العالم فى عينيه ، ماتت كل الرؤى . حياته تكتسب الان معناها الفعلى . حتى بعد عودة والده من ايتاى البارود ، بعد قتل صابرين ، ينتشر الخبر فى العزبة ، وفى العزب المجاورة ، يصل الى دميسنا . وعندما يصل الامر الى هذا الحد ، فالموت اهون . يحرق السراى ، يقتل صفوت المنيسى ،

يطلق مياه البحر على الناحية كلها ، يقضى على الحاج هبة الله نفسه. ثم يسلم نفسه فى مشهد مهيب ، مجلل بالبطولة والعظمة .

ــ منين أجيب ناس لمعناه الكلام يتلوه .

سار عبد الستار فى الطريق الى الجسر . صابرين تلبس فى قدميها شبشبا بوردة حمراء فاقعة ، تلف رأسها بشال بنفسجى ، ترتدى جلبابا أسود . عبد الستار يسير منكس الرأس ، تصافح قدميه ظلاله على الجسر . قابله عند رأس الجسر أبو الفتوح فى طريقه كى يفتح دكانه .

ــ ازيك يا عبد الستار .

خرج البخار من فمه .

ــ مستورة والحمد لله .

غير أنه سخر من نفسه ، لو فتح له قلبه ، عرى نفسه . لروى له مأساته ، حزنه ، ألمه ، خوفه ، حبه لصابرين ، سبب ذهابه الى ايتاى البارود ، بيد أننا ، حتى فى هذا المكان ، نرد بأجوبة رسمية ، جافة ، كلمات محفوظة ، كالحديث فى المصلى ، والحديث الصادر من الراديو ، وما يكتب عادة فى الخطابات . حضرة المحترم ولدنا العزيز ، دام ، بعد التحية والاحترام . أو حتى ما يقال ساعة الفراق . ازيك ، الحمد لله ، ازاى الصحة ، كويسة . ولكن عبد الستار ، يحس برغبة حادة فى البكاء ، ولو كان على صدر أبو الفتوح .

وصل الاتوبيس ، توقف ، سحابات الغبار الان داكنة ، قليلة ، فالارض ما زالت مبللة بقطرات الندى . طريق الاتوبيس ، فى الصباح ، يترك أثرا بالغ الوضوح ، طريقا أبيض ، وسط الجسر الرمادى الداكن . وعبد الستار يصعد الى الاتوبيس ، أحس فى فمه طعم الدموع المالح . وهو ذاهب الى المركز ، لم يكن يخيفه لدرجة الرعب ، يحزنه لحد الرغبة فى البكاء ، الا أهل العزبة .

ــ الستر يارب .

فى هذه اللحظة ، الف عين تمسحه بنظرات الشماته ، الف الف اذن تسمع مأساته ، ألف رغبة فى نفس الزناتى الذى لابد وانه علم بكل شىء ، فى قتل صابرين . حتى مناقير الجنادب التى تنبش حبات الطين . حوافر أبو قردان التى كانت تنفرس على البعد

وتفوص فى أحواض الارز البعيدة ، تعرف ماساته . حكاية الاشواق والاسى فى عزبة الحـــاج هبة الله المنيسى . حكاية صابرين ابنه عبد الستار غفير العزبة مع سى صفوت ابن الحاج الكبير .

الاتوبيس يسير ناحيــة دميسنا ، مرسلا صفيره الحــزين . عبد الستار يجلس مرتديا جلبــابه الزفير ، فوقه جلبابه الفريسكا الوحيد (تبدو خطوط الجلباب التحتانى من فتحات الاكمام ، والذيل واضحة . والجلباب الفريسكا جلباب خاص لا يرتديه عبد الستار الا عند الذهاب للتعزية ، أو عند عزومته فى فرح أيضـا ، عنـد الذهاب الى المركز أو المديرية ، وذلك نادرا ما يحدث ، أو للذهاب الى السوق فى نكلا العنب أو المولد) .

يوم أمس الاول ، علم عبد الستار من ستهم كل شىء . قالت له ، وهما فى المندرة البحرية كل ما حدث . ذهل لجزء من الثانية ، لم يصدق ان التى أمامه هى ستهم التى عاشرها أحلى سنى عمره . لم يدرك حقيقة ما حدث . لم يصدق انه يجلس بداخل المندرة ، وان التى الى جواره البندقية ، أحب الاشياء الى نفسه .

ـ بتقولى ايه يا بت .

ـ أهو دا اللى حصل .

ـ ازاى .

الحزن في عينيها اللتين بلا رموش ، مبلل بالاسى .

قالت له :

ـ كل دا مالوش لازمة ، احنا مش عايزين الا نستر نفسنا .

هاتوها لى . أريد أن تلتقى العينـــان ، كى أعرف كيف تتلون الحرباء . وكيف تتلوث أقدس الاشياء . هاتوها لى ، أريد أن انظر فى عينيها ، أن أبحث عن البراءة القـــديمة ، الحزن النـــائم تحت الرموش السود الطويلة .

ـ وهيه فين دلوقت .

ـ حاتعمل ايه يا راجل . حاتموتها ، احنا عايزين الستر .

سـكت ، جلس ، راح ينبش أرض وسط الدار بعـود صغير انتزعه من الحصيرة القديمة ، رسم خطوطا بالطول وبالعرض ، طرقا مسدودة ، حقولا أصـــابها البوار ، ترعا جفت ، ابيضت بفعـــل الجفاف ، تشققت .

قالت له ستهم وهو خارج ، وظلال الفسق تلون الاشياء ، تحتويها ببطء صامت :

ـ أوعى الزناتي يعرف ، دا ولد طايش ، وجايز يعمل أى حاجة .

شاهد صابرين فى اليوم التالي ، أمسك بها . شعر نحوها بحنين، حب ، أشياء غير عادية تمور فى أعماقه . أحس وهو يمسك بها ، وهي تنظر اليه بعيونها الفاقعة السواد ، انها جزء منه . وانهـــا على الرغم من كل ما فعلته ، أقرب الناس اليه . تكسرت كل ذرات غضبه على كرسى خدها الاحمر ، بين عيدان رموشها السود الطويلة. قرصها . لم تتكلم . خرج مسرعا . قال لنفسه بمجرد ان وصل الى مكتب الباشكاتب .

ـ دا مكتوب ، مقدر . يعني كانت حاتعمل ايه .

بالليل ، وهو يصيح : من هناك . دهش من هذا الهوان الذى تمكن من نفسه ، من طريقة تقبله لهذا الخبر . كان من الواجب عليه أن يذهب الان الى صابرين ، يقتلها ، يشرب من دمها ، يغسل عاره ، يدفنه ، لا يبكى عليـــه . أدرك عبد الستار ، انه يحب صابرين أكثر من أى شيء آخر . فلتكن من تكون ، ولكنه يحبها .

فى اليوم التالي ، فى ساعة العصـــارى ، والحزن ينسال فى الحارات الملتوية ، فى القنوات ، على الجسور ، المصارف . والاسى يترقرق على البعـد ، خلال الحقـــول ، السواقى . اقترب منه ، يا سيدنا ، يا مولانا ، نحن الفرقى . البندقية فى كتفه ، الطلقات العشر تبرز واضحة المعـــالم من تحت الجلباب . كان عبد الستار حائرا من اين يبدأ الحـــديث . كيف يكلم الحـــاج هبة الله ، بأى الكلمات يخبره . لا يوجد معى الان يا سيدى ، يا صاحب كل شيء ، كشفا بالمطالب والحاجات .

وصل عبد الستار الى مجلس الحاج هبة الله .

ـ سلامو عليكو يابا الحاج .

رد عليه ، سقط الصمت ثقيلا . وقف عبد الستار ، انتظر أن يذهب كل الجالسين كى يخلو لهما الجو . فكر ، لمدة ثانية واحدة ، فى ان يقتل صفوت ، يمزقه . قرر بعد ان تشاور مع ستهم أن يخبر الحاج هبة الله . الاحساس بالهوان والهزيمة ، قد استقر الان فى أعماق عبد الستار . اقترب عبد الستار من الحاج هبة الله :

ـ أنا عايزك يابا الحاج فى حاجة كدا .

رمشت عينا الحاج فى دهشة :

ـ أنا كمان كنت عايزك . انما الواحد كان ناسى .

وهل تنسى مثل هذه الامور يا صاحب العزبة . دهش عبدالستار. هل كان الحاج يعلم . قام الحاج هبة الله . خلف التندة ، وقفا معا . احتار عبد الستار ماذا سيقول . من أين يبدأ . لاك لسانه فى حلقه أكثر من مرة . أحس فى أعماقه بطعم الحزن مختلطا بأسف دفين . لم يتكلم ، أشار له الحاج هبة الله أن يسكت . صمت .

ـ ما تتكلمش يا ابنى ، أنا عارف كل حاجة ، ومقدر شعورك .

كل الكلمات ، الانفاس الحارة ، العواطف المدببة ، الاسى الاملس ، الحزن الدفين ، كل شىء يضيع تحت ركام الصمت الثقيل . سأله الحاج :

ـ عايز ايه بالضبط .

ـ أنا برضك عايز حاجة يابا الحاج . البنت بنتك وانا تحت أمرك .

قال الحاج وهو يشوح بكفه الضخم :

ـ يبقى خلاص ، أنا حا أكلم دكتور فى تيبه البارود .

اكمل الحاج كلامه :

ـ مالكش دعوة ، البنت حاترجع بنت زى ما كانت .

كل شىء فى عبد الستار لا يصدق ما يقال ، كل لمحة ، نظرة ، كل ايماءة ،تقول ، لا . وضع الحاج هبة الله يده على كتف عبد الستار :

ـ أنا حا أرضيك ، حا أديك اللى انت عايزه ، فاهم .

بعد لحظة صمت :

ـ بعد ما حا أكلم الدكتور ، حا أقول لك تروح فين .

رد عبد الستار بصوت ضارع :

ـ بس مايكونش يوم الاحد ، دا يوم السوق .

فكر الحاج قليلا ، عد الايام على أصابعه .

ـ مش حايكون ، يوم السبت ، ولا يوم الاحد ، ينفع يوم الخميس .

قبل أن يرد عبد الستار ، قال له الحاج هبة الله .

ـ خلاص يوم الخميس تروح ، وتنتظرنى قدام المركز .

فاهم ، رفع يده :

ـ مع السلامة انت بقى .

الح عليه خاطر غريب ، فى اللحظة التى كانت يد الحاج هبة الله تنزل فيها الى جواره . كلمات عن الادهم ، وراح الادهم على تييه البارود هزه ، كركون شرف معتبر كله عشان الادهم . (والادهم ، من بلدة قريبة من هنا ، بالتحديد ، على بعد ١٢ كيلو مترا ، من عزبة تقع بجوار قرية التوفيقية ، هى عزبة زبيدة ، ولكن ما يحزنهم هنا ، ان عزبة زبيدة ، تقع فى زمام مركز كوم حمادة) .

يجلس عبد الستار ، داخل الاتوبيس ، بجوار صابرين . لمحها بطرف عينيه ، وجدها تبكى . نظر اليها :

ـ خبر ايه يابت بلاش عياط .

نظرت اليه ، حاولت أن تتكلم ، تكسرت حدة غضبه ، تدحرجت من فمها الفاظ بطيئة ، فاقدة المعنى ، مستطيلة . تحرك فى أثناء ذلك فكها الاسفل ، كأنما يطحن الكلمات طحنا .

وصـــلا لى ايتاى البارود . تم كل شيء بسرعة ،الدكتور،العملية، رائحة البنج . هــذيان صابرين باسمه مرة ، باسم ابو الفيط مرة اخرى ، اسم صفوت المنيسى . خرج الدكتور . طلب منه الحــاج هبة الله المنيسى ان ينتظر حتى تفيق صابرين ثم يعودان وحدهما الى العزبة . ركب الحاج هبة الله سيارته الاجرة الخضراء . قبل ان يغلق الباب ناداه :

ـ تعالى يا ابنى .

مازال عبد الستار يذكر هذه اللحظـــة . قد ينسى عمره كلــه ، تتوه معالم الاشياء فى ذاكرته ، تتداخل ، تذبح احســـــاسه بكل شيء . ولكن هذه اللحظة محفورة فى أعمق الاعماق . اقترب منه الحاج ، قال له :

ـ خد دول .

أوراق خضراء لها رائحة معينة ، مثل رائحة الملابس الجديدة فى يوم العيد . لم يشعر بأن الذى فى يده نقود . لم يشعر بالفرح ، بالبهجة . احس انه قد باع صابرين . باع نفسه . هذا هو الثمن اذن ، فلتمت صـــابرين ، يذهب كل شيء ، تموت كل المعانى . ما زال يذكر ، فى اللحظة التى كان يتسلم فيهـــــا المبلغ . بائع الصحف ينادى فى فتور لحظـــة الظهيرة : الاهرام ، الاخبار ،

الجمهورية . تاجر ينادى على فاكهته ، طبلة صغيرة تبكى ، سيارة تمر بسرعة متجهـــــة الى كفر عوانة . صوت يبكى آتيا من المركز خلفهم ، آه يانى . مجموعة من الشباب يقودهم شرطى ذاهبا بهم الى محطة السكة الحـــديد . وعبد الستار يأخذ المبلغ من الحاج هبة الله المنيسى ، الثمن ، ثمن كل شىء . السيارة تتحرك . الحاج هبة الله المنيسى يلوح بيده من داخل السيارة :

— طيب الســـلامو عليـــكو . مش عايزين حاجة يا ولد . انا حاسبت الدكتور .

عاد الى صابرين ، جلس بجوارها ، افاقت ، اخذها ونزل الى الشارع . صابرين ما زالت مهوشة ، لا تدرى حقيقة ما حدث لها . بدت له فتاة حيرى ، حزينة . شىء واحد ظل يريع عبد الستار ، حتى عقب عودته الى بلدته ، ما زال يذكره ، يعيشه من جديد ، يمضغه فى ألم ، يذبح احساسه بنفسه ، بحياته ، ببقايا كرامته ، لا يستطيع أن ينساه . مازال يذكر نظرات الاشفاق التى رآها فى عينى الدكتور والتومرجى وسائق السيارة الخصوصية التى ركبهـا الحاج هبة الله ، سمعها فى صوت استغاثة الرجل القادمة من المركز، فى نظرات الشبان الذاهبين الى محطة السكة الحديد . غير اننا فى لحظات الاسى ، سويعات العرى الكامل من كل ما قد يستر الانسان، لا نستطيع أن نميز بين الرثاء والشفقة ، وبين التشفى والرغبة فى الستر . ولكن مهما كانت درجة وعى عبد الستار ، فانه يدرك أن النظرات كان فيها شىء ما ، لمعان غريب ، أسى . كلماتهم المتداخلة الاحرف ، المائعة المعنى .

— بالشفا ان شاء الله ياصابرين .

شعر عبد الستار ، وهو يسمع هذه العبارة ، بانها مشابهة لما يقال فى العزبة عادة ، كتعليق على ضبط احدى النساء الخاطئات مع احد الشبان فى حقل ذرة ، ما يقـــال عن الستر والفضيحة ، والنفس الآثمة ، والعار .

ولكن لمن يفتح قلبه ، يعرى نفســـه ، يخرج ما يثقل الفؤاد . سأقول لهم كل شىء من غير شك .

نزلا من الاتوبيس ، سارا معا ، حارات العزبة المغسولة بالاسى . كان الزناتى يقف أمام البيت ، شاهد صابرين ، بهت لم يكن يتصور

انها ستعود . شاهد الزناتى أمه تخفى فى سحارتها ، فى آخر حجرة المعاش من الداخل نقودا خضراء ، شم رائحتها على البعد . أدرك الزناتى ان هناك أمورا تخفى عنه . قال لامه بعد أن خرج والده :

ـ همه كانوا بيعملوا ايه ؟

ـ ياخويا أنا عارفه .

ـ بس دى رجعت تانى ، أنا كنت ...

ـ كنت ايه كمل .

ـ كنت فاكره حايموتها .

ـ اوعى تفكر فى أى حاجة زى دى .

وقف ، اكتشفت انه طويل وعريض . قال لامه بصوت عال كى تسمعه صابرين :

ـ دا لازم يحصل ، واللى يتكلِّم ، يتكلم . صابرين لازم تموت .

فى كل صباح ، ستهم تفتح سحارتها فى غرفة المعاش ، تطل بداخلها بوجه امتلأ بالتجاعيد وشعر أبيض أكثره قبل الاوان . تطل داخل السحارة ، تشاهد النقود الخضراء ، تتأكد من وجودها ، نعدها . ليلة ان عاد عبد الستار من ايتاى البارود ، كان معه خمسون جنيها . أكبر مبلغ حصلوا عليه فى العمر الطويل . لا يحزن عبد الستار وستهم الا انهما فى اللحظة التى حصلا فيها على هذا المبلغ الكبير ، فقدا ولديهما معا ، الزناتى وصابرين . الزناتى ، له الله وحده ، اصبح له عالم يخصه ، يسهر طول الليل ، حتى تأتى نجمة الفجر ، حاملة معها الامل والحلم والخلاص ، يذهب الى الحقل ولا يعود الا وقت الظهيرة كى يأخذ غذاءه ، لا يجلس معهم للاكل . أما صابرين ، مليت بالدمع كاساتى ، نادرا ما يشاهدها أحد وسط الدار ، لا تنزل الا بعد خروج والدها والزناتى فى الصباح واما بعد ذلك فهى على السطح فى عالمها الخاص ، تناجى قدرها ، تمضغ قضاءها المحتوم . حاول عبد الستار أن ينس هذا الامر . اراحة انه لم ير صابرين ، انغمس فى حياته الخاصة ، تجنب وجوده فى المنزل ، ولكنه رغم كل شىء ، ذات ليلة حزينة ، وكان عبد الستار ذاهبا الى الجسر بعد العشاء ، والبندقية معلقة فى كتفه ، سمع راديو أبو الفتوح ، كان هناك رجل يتحدث مع فتاة هى ابنته : يا ابنتى قومى ، انهضى ، تطهرى من الخطيئة ، الا تدركين معنى ما أقول ، انهضى ، انهضى . لم يدرك عبد الستار معنى

هذه الكلمات ، ولكنه بكى ، حقيقة بكى . تناهى اليه ، وهو يبتعد عن الدكان صوت :

ـ يا عم حول عايزين مغنى .

سار فى طريقه ، نظر بعين بالغـــة الاسى الى مأساة صـــابرين وابو الفيط ، آه لو علم أهل العزبة ، ياه ، الليل على الافق ، فى مثل هذه الاوقات ، ليل حزين ، يهبط قبل الاوان ، يلف كل شىء بداخله ، يحتويه فى أعماقه ، يستره ، الا حزن عبد الستار ، وبكاء صابرين ، الجالسة على سطح المقعد العالى .

بعد لقائهـا مع صفوت المنيسى فى المخزن ، مر شهر ، شهور ، اول ما تذكره صابرين ، ان المرض الشهرى توقف . ولكنها خافت أن تخبر أحدا . شىء كدبيب النمل يسرى فى جســدها ، ضعف يعتورها ، بطنها بدأت تنتفخ ، تنداح الى الامام ببطء . فعلت كل ما كانت تسمعه من الناس هنا ، ولكنها فشلت . ما عمق احساسها بالظلم ، أنها لم تكن ، تستطيع أن تستشير أحدا هنا . بيد انها اكتشفت كل شىء بنفسها ، ودونما عذاب الكلمات ، كانت صابرين قد أصفر لونها ، أصابها هزال ، كبرت شفتاها ، برز انفهـــا ، تكورت بطنها . أمسكت بها أمها ، وهما بمفردهما فى الدار ، والوقت صباح ، سألتها :

ـ انت مالك يا بت .

للوهلة الاولى ، خافت صابرين ، لم ترد .

مافيش حاجة ، يعنى حايكون مالى .

أمها لم تسترح ، ظلت تلاحقهـا بنظرات الشك . الى أن كان يوم ، وكانت ســتهم تطبخ ، فى اللحظـــة التى كان طشيش التقلية فى السمن المحروق يتعالى . قالت لهـا صابرين كل شىء ، حكت ما حدث . خبطت أمها على صدرها ، صرخت :

ـ يا لهوى ، وابوكى ، دا أخوكى شنبه فى وشه . وأبو الفيط يا بت .

لطمتها على خدها ، شدتها من شعرها ، كادت أن تدفسها فى الفرن .

ـ شوفى لك أى تصريف ، دا الزناتى يموتك .

ولكنها فى صباح اليوم التالى ، ذهبت اليهـــا ، ايقظتها من

النوم . غسلت بيديها الحانيتين أحزان الامس . حدثتها بحنان ، قد يكون قريبا من الحنان الاول . وبدا لصابرين ، فى هذا الصباح ، ان أمها قد نسيت حكاية الامس . وانهـا لن تخبر احدا بذلك ، وانها ستحل لهـــا كل شيء . ولكن الايام بعد ذلك خيبت أمل صابرين .

والزناتى واقف أمام المية ، استعاد وعيه كل ما عرفه بالامس . قد أدرك بوعيه الخاص وبكلمات قليلة ، مبتورة من أمه كل ما حدث ، ما حدث فى ايتاى البارود . الخمسون جنيها التى قبضها والده ثار ، هاج ، ماج . زعق بصوت عال ، قالت أمه :

ـ الستر يا ابنى ، دى أختك .

لعن كل شيء ، قرر ان يقتلهـــا ، ان ينهى كل شيء بنفسه . لا يمكن للامور ان تستمر . بعد أن يعود ابو الفيط من الترحيلة ، نيلة الدخلة ، سيقف الزناتى أمام المنـدرة الصغيرة ، ينتظـر كل اهل العزبة أن تخرج المحرمة من الداخل مثقلة بالدماء القـانية . يمر الوقت ، يمضغ الزناتى الانتظار ، يعانق القـلق . عليـه هو ان يقف أمام باب حجرتها فهـو شقيقها الوحيد . بمجرد أن يتسرب الوقت ، يدرك الكل حقيقة ما حدث . يصبح عبد الستار والزناتى وصابرين حديث أهل العزبة كلهم لسنوات طوال قادمة ، يؤلفون عنها الحكايا . أما ان كانت العروس بكرا ، فان المحرمة تخرج مثقلة بالدماء الحمراء ، تنشر على رءوس الاشهاد ، يحملها شقيق العروسة الذكر ، يغنون . يظهر البشر على الوجوه ، يقولون بصوت عال : قولوا لابوها ان كان جعـان يتعشى ، وان كان شبعان يفرح ويقوم يتمشى ، عرضه انستر واللى يحبه اتهنى .

فى الليالى الطوال ، كان ما حدث لصـابرين ، يشقى الزناتى ، يثقل نفسه بالاحزان ، يضنى الفؤاد بالهموم . لكنه فى كل مرة ، لم يكن يدرك ما يجب عليه القيام به . بحث كثيرا عن صابرين ، كانت تخافه ، تهرب منه . كم من أوقات طوال قضاها فى الحقل بالليل ، يفكر فى المصيبة التى حلت به ، أدرك فى كثير من الاحوال ان ما حدث لصابرين يمسه هو شخصيا اكثر من أمه وأبيه . وانه هو الذى استسلم ، نام لصفوت ، أسلم نفسه له ، هتك عرضه .

لم فعلتهـــا يا صابرين ، لم ، لم ، لم . لم صفوت المنيسى

بالذات . ل ، م . صابرين تنام له ، يتقلبان معا وسط أكوام التبن ، المخزن مظلم ، بلادة الظلمات تتكسر على الجدران الطينية . صابرين تعجب به ، تقول له أشهى الكلمات . لم فعلتها يا أختى ، يا صابرين . ص ، ف ، و ، ت . ص ، ف ، و ، ت . ألم تفكرى فى أنا ، أنا الزناتى ، أخوك . ألم تفكرى فى عبد الستار ، والدنا ، فى ستهم ، أمك . فى العزبة ، فى الحوارى . الجدعان أمام دكان أبو الفتوح فى لحظة العصارى ، حديثهم عن أهل العزبة فردا فردا . جماعة الرجال على الجسر كل صباح حول الحاج هبة الله المنيسى . الشيخ وحديثه فى المصلى عن الستر والفضيحة والخير والشر . المصاطب المستطيلة فى لحظة الغروب فى دميسنا . غرفتنا الصغيرة ، أنا وأنت ، فى ليالى الشتاء الطويلة ، حول النار التى كنا نشعلها للتدفئة . الاجولة والملابس القديمة التى كنا نسد بها المنور الموجود فى حجرتنا . قوالب الطوب الطينية التى نضعها تحت الباب ، فى الفراغ بين الباب وأرض الحجرة حتى تمنع الرطوبة والبرد فى آخر الليل . ألم تفكرى يا صابرين فى ذلك الصمت الجياش الذى نستشعره عندما نتنفس عن قرب فى حجرة نومنا فى ليالى الشتاء . هرير الانفعال ، هسيس الليل العميق ، حكايانا معا . لم فعلتها يا صابرين . لم ، لم ، لم ، لم .

الزناتى الان ، وهو واقف أمام المياه ، والعزبة على البعد هادئة ، يدرك انه لو مر عليه هذا اليوم دون أن ينفذ ما عزم عليه ، لفقدت حياته معناها ، ولاغرق نفسه منذ صباح الغد فى البحر البعيد ، عند الموردة . اغفر لى يا أبى ، أعرف انك تحبها ، أنا أيضا أحبها لحد العشق . ولكن ما دام انه لم يكن هناك مفر من الذى حدث ، فلا مفر أيضا من الذى سأقوم به . وكانت الشمس تقترب من كبد السماء ، وكان سير المياه فى الارض الشراقى يحدث همهمة خافتة ، هادئة ، جافة المعنى . قالت له أمه ، ان المبلغ مودع عندها كى يشتروا به حتة أرض ، فى دميسنا ، وانهم سيرحلون الى هناك ، وان الرحيل فى حد ذاته لابد وانه سينسيهم كل شىء .

فى لحظة الظهيرة ، عندما أصبح ظله لا وجود له ، والشمس تتوسط صفحة السماء الصافية . حمل فأسه ، ذهب الى الساقية ،

فك البقرة ، ربطها بجوار مدار الساقية ، وضع الاكل للبهـــائم . رفع صوته ينادى على جاره :

ــ خلى بالك من البهايم يا بو فتحى ، أنا رايح لغاية العزبة وجاى على طول .

ركب مداسه ، كبس الطاقية فــوق رأسه ، لبس الصديرى على القميص . ذهب الى العزبة . كان يخيم عليها هدوء غريب ، هدوء لا طعم له . ولكن الزناتى لم يكن ذاهبا الى دارهم ، كان فى طريقه الى مكتب الباشكاتب ، توقف أمام مكتبه :

ــ سلامو عليكو يا جماعة .

ــ وعليكم السلام ورحمة الله .

فرد أكمامه عن آخرها ، دخل مكتب الباشكاتب :

ــ صباح الخير يا حضرة الباشكاتب .

الكاتب لا يرد على أحد ، اقترب منه . قال له وهو يشير موضحا بيديه وملامح وجهه :

ــ والنبى يا حضرة الباشــكاتب أنا عايز شوية توكســافين ، أو زرنيخ .

رفع الكاتب وجهه اليه :

ــ عايز ايه يا ولد ؟

ــ عايز شوية توكسافين أو زرنيخ .

ــ عايزهم ليه .

ــ يعنى حا أشربهم .

ضحك أحدهم :

ــ يمكن .

قال الزناتى :

ــ فيه فيران فى الدار .

ــ فوت العصرية .

ــ أنا مش فاضى . والنبى عايزهم دلوقت .

قام الباشكاتب وهو يسب ويلعن (هذا شىء نادر الحدوث ، بل ربما يحدث للمرة الاولى ، فالباشكاتب نادرا ما ينجز شيئا ما لاحد عند طلبه للمرة الاولى) . سار الزناتى خلفــه . فتح المخزن الرطب .

ـ ايوه يا سيدى ، انت عايز توكسافين ، بس عايزين طبخة ملوخية يا ولد .

ـ الفيط كله تحت امرك .

دخل المخزن ، احضر زجاجة صغيرة ملوثة ، أعطاه فيها قليلا من التوكسافين .

ـ طيب حط كمان شوية .

ـ دا يسم بلد ، موش فارين .

اخذ الزجاجة ، رفع يده الى جبهته :

ـ تشكر يا حضرة الباشكاتب .

خرج ، الزجاجة فى يده ، الطريق الى الحقل طويل . كل فضاء السماء الازرق ، الفارغ ، الشاحب ، ينطق ، يقول له ، يطلب منه ، أن يكف عن الذى سيقوم به . شعر وهو يقترب من الحقل ، والزجاجة فى يده ، ان حياته قد يبست ، نضبت ، فقدت بهاءها ، ماتت حلاوتها ، ذبح معناها . اصبحت حياته بلا أفق تطل عليه . شعر ان كل شىء ، حياته ، افراحه ، صابرين ، أرضه ، الساقية ، كل ما يملك ، كل شىء يغوص فى الحزن .

وصل الى الساقية ، الزجاجة فى يده . حاول أن ينام ، أغمض جفنيه ، تقلب على مدار الساقية . راح ينظر الى قرص الشمس من خلال أوراق شجرة التوت التى ينام تحتها . تناهى اليه صوت فتاة صغيرة تغنى فى حقول دميسنا ، وغمرت غيطى بالعرق ما عطاشى . السيد المحترم الحاج هبة الله المنيسى . بعد التحية . صوت من تغنى ، ورعيت لمحبوبتى هواه ما رعاشى . الغناء الحزين يتنفس انساما حزينة اسيانة ، افكاره يترقرق فيها تعبير أملس ناعم ، قريب من معنى الموت والحياة . ولكنه ادرك بعد قليل انه لا يرى الاشياء رؤية واضحة مثل رؤيته للامور فى هذه اللحظة .

بعد العشاء ، وهو يدخن السيجارة التى يدخنها طيلة يومه ، على الجسر ، بعيدا عن العزبة ، أدرك أن الاوان لم يفت بعد .

الاسم الكامل : الزناتى عبد الستار المسلوب

تاريخ ومحل الميلاد : ١٩٤٨

الوظيفة أو المهنة : مزارع

رقم البطاقة : ٧٦٤٨

تاريخ صدورها : ١٩٦٦/٩/١٣ .
ينتهى العمل بهذه البطاقة يوم : ١٩٦٧/٥/٢٣
صـادرة طبقـا لاحكام القـانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٦٠ ،
المعدل بالقانون ١١ لسنة ١٩٦٥ فى شـأن الاحوال المدنية .

توقيع محرر البطاقة : امضاء

توقيع أمين السجل المدنى : امضاء

بعد القيلولة ، (لم يتناول فيها طعامه ، فأخته لا تخرج ، وأمه ٧ تحضر الى الحقل ، وهو نفسه لا يرغب فى الذهاب الى المنزل) ، ام ، كان عليه أن يكمل رى الارض ، ولابد من عودته مبكرا ، قبل ن ينزل الزناتى الى الحقل ، وضع الزجاجة بين فرعين فى شجرة التوت ، سد فوهتها بعيدان القش ، نزل أمام الميه .

عبد الستار ، فى لحظة العصارى من كل يوم ، يصحو من نومه فى المصلى ، يصحو على تمتمات الشيخ عبد الفتـاح وهو يصلى العصر . فى الجو طراوة محببة ، يفيق عبد الستار من نومه ، يفرك عينيه ، يقوم . يبول بالقرب من المصلى ، يتوضأ . يصلى الظهر الذى فاته بسرعة كى ينضم الى الباقين ويصلى العصر جماعة . يجلسون فى المصلى . يلف عبد الستار سيجارة رفيعه ، يشربهـا ببطء . تتوه نظراته فى زرقة السماء الصافية ، يمر بعد قليل على الدوار . قد يكون الحاج هبة الله هناك . يذهب الى دكان أبوالفتوح ، يستمع الى الراديو (يسمع عادة تمثيلية الخامسة والربع بعد نشرة الاخبار مباشرة فى البرنامج العام ، ولا يجرؤ أحد أمام الدكان ، ولا حتى أبو الفتوح نفسه على تحويل محطة الراديو ، خاصة فى الايام الاخيرة من الشهر) . يذهب الى الجرن ، الموجود خلف برج الحمام (يملكه الحاج هبة الله المنيسى ، ويقال فى العزبة أن المالك الحقيقى لهذا الجرن هو زوجته ، الحاجة أم صفوت ، وليس هو) .

فى الجرن ، بالقرب من طلمبـة المياه ، التى يشرب منهـا أهل العزبة ، يلعبون السيجة . يجلسون فى جماعات صغيرة ، يلتفون حول الارض المخططة بنظام ، يجمع بعضهم قطعا صغيرة من الطوب الاخضر (نسبة الى انه طوب من الطين) ، ويجمع البعض الاخر قطعا من الطـوب الاحمر ، يسمونها الكلاب . يبداون اللعب ، والشمس ما زالت على الافق ، تتكسر أشعتها الباهتة على بحر من

الحقول المترامية الاطراف . يظلون فى لعبهم ، حتى تتوه معالم الاشياء ، يفترش الظلام المسافات البسيطة بينهم . لا ينسى عبد الستار بمجرد أن تغيب الشمس أن يقوم ، مهما كانت حلاوة اللعب ، هزيمة ، أو انتصار كلابه على كلاب خصمه . يقوم :

ــ طيب عن اذنكو يا جماعة .

يردون فى صوت واحد :

ــ طيب اتفضل انت .

يجرى ناحية المكتب ، يعاتب كلابه . وهو فى الطريق الى المكتب ، يقول لنفسه : لو الكلب الفلانى ما اتحرقشى . لا يجد من يرد عليه . عبد الستار بعد ذلك ، وطوال الليل ، لا ينسى معارك السيجة ، الانتصار والهزيمة ، الكلاب التى حرقت . حتى وهو فى أعماق الليل ، يتذكر كل شىء ، وينتظر فى الوقت نفسه ، لحظة العصارى القادمة .

ما ان بهتت ملامح الشمس ، استطالت ظلال الاشياء ، هبت نسمة الهواء الطرية ، أصبحت الظلال متآكلة الاطراف ، حائلة اللون ، حتى قرر الزناتى أن يعود . أوقف الساقية ، فك رباط الجاموسة ، لبس ملابسه ، حمل الزجاجة التى تحوى التوكسافين بهدوء ، ركب حماره ، سحب خلفه البقرة والجاموسة ، تأكد قبل أن يركب حماره من انه سد المياه ، خبأ الناف والطنبوشة داخل الحقل ، حاول أن يرى ملامح ظله ، أدرك أنها لحظة المساء .

صفوت ، سى صفوت ، صفوت المنيسى ، صفوت هبة الله المنيسى . انه الان يتمشى ، فى شوارع الاسكندرية ، لا يفكر فى اى شىء ، وصابرين ، قد يفكر فيها ، فى جزء صغير من الثانية ، قبل أن ينام ، أو بعد استيقاظه مباشرة ، أو وهو فى طريقه الى المدرسة ، أو وهو يذاكر ، أو وهو ذاهب الى السينما ، وفى وسط كل هذا ، تعبر صابرين خياله ، فى سرعة ، كطيف عابر .

فكر الزناتى ، وهو يحمل الزجاجة ، وينظر الى الارض ، وصابرين ، والعزبة . فكر فى صورة العزبة فى لحظات الفراق ، تلك اللحظات النادرة التى لا نستطيع أن نعبر عنها بالكلمات ، تظل هكذا ، ولسنوات قادمة ، فجوات مبتورة داخل شعورنا ،

نحسها ، نعيشها ، نعرف مذاقها ، طعمها الخاص ، ولكنا لا نعبر عنها بالكلمات .

رفع الزناتى عينيه ، نظر الى العـزبة ، كان يخيم عليها ذلك الهدوء الفريب ، الكالح ، الرطب . كانت تعشش فى حاراتها ، نوع من اللامبالاة والضجر . فى لحظة العصارى ، من كل يوم ، لم يكن الزناتى ، وهو فى طريق عودته الى المنزل قد توصل الى قرار . ولكنه فكر طويلا (عبارة فكر طويلا تعنى ان الرجل قـد جلس ، أو تمشى الهوينـا . وحاول أن يقيم علاقـة ما بين أهم الموضوعات وبين ذهنه ، ولكنهم هنـا يفشلون فى ربط الاشياء بعضها البعض ، المسببات بالنتائج ، الظواهر بالاشياء الباطنة . لذا فانهم ينصرفون ، لجزء من الثانية الى أمور اخرى . أما الشىء المؤكد ، فـان أول ما يخطـر على باله يؤخـذ عادة على أنه القرار الاخير) . ان الصـور والتراكيب التى تزخر بها عقولهم أشـياء متآكلة ، باهتة ، مسطحة .

الزناتى ، وهو فى طريق عـودته الان الى المنزل ، لا يدرى الا حقيقة واحدة ، هى انه لابد وأن ينفذ ما عزم عليه ، قبل أن يعود والده من المصلى ، أو وهو هناك فى الجرن يلعب السيجة ، أو فى مكتب الباشكاتب يتسلم البندقية .

الزناتى يقترب من العزبة ، والعزبة تمر بلحظة الاستسلام لليل طويل مقبل . الاسى ريح تصفر فى دار مهجورة ، حرقت تركها اهلها . تشاءم الناس منها ، بقيت هكذا مهجورة . جدرانها التى اسود عاليها ، بقايا عيدان الخشب المتآكل من حروفه ، مسارات المياه التى استخدمت فى الاطفاء . الحزن يد ترفع فى ساعة فراق، يبدو ظلها على الارض متموجا ، تودع من نشـعر نحوه بأجمل العواطف ، ولـكنه يغيب ، يبتعـد ، يتوه ، تفصل بيننا وبينه مساحات من اليأس والاحباط . فى لحظة وجود الحبيب امامنا ، لا نجد الكلمات ، تتحرك اليدين ، تمتلىء العيون بالدموع ، تتحرك خلجات الوجـه . ولـكنا بعد أن يرحـل الحبيب ، يصبح ذكرى قديمة ، مدفونة فى حبة القلب . تنفجر النفس بالكلمات ، تغنى فى الحقول ، فى الافراح ، ولامتى الصبر يا شيخ أيوب ، ولامتى الحريبات مفلوب .

الزناتى يصل الى منزلهم ، ينزل من فوق الحمار ، يدخل الحمار بمفرده الى الزريبة ، يتوقف أمام مزوده . فى قلب الزناتى يتراكم الحزن فوق الحزن فوق الحزن . مرصوصا ، تماما كقوالب الطوب التى كانت سترص فى المنزل الذين حلموا ببنائه ذات يوم فى بلدهم دميسنا . ولكن ذلك لم يحدث .

فى الزريبة ، ربط الحمار ، ربط الجاموسة والبقرة ، كل على مزوده . خروج الى وسط الدار ، تأكد من وجود الزجاجة معه ، نادى :

ــ فين صابرين يا أمه ، أنا جبت لها الدوا .

أحس أن الكلمات تنزلق من فمه ، وتترك فى أعماق الفم ، تحت الضرس ، بين الاسنان ، طعما بالغ المرارة ، مثل طعم حبات الشبب البيضاء .

ــ آهى جوه ، دى حتى عيانة .

أنا الادهم ، والادهم قتل لى م العيال ولدين .

ــ انت فين يا صابرين .

أنا الادهم ، والادهم أجيبه منين .

دخل عليها ، جلس جوارها ، اهذه هى صابرين حقا ، نبش بحثا عن الجمال القديم ، القد الريان ، خدها الوردى ، الرموش الطويلة ، الصدر الناهد . بحث عن أخته القديمة ، شعر منكوش ، عينان زائغتا النظرات ، شفتان متورمتان . بدت له صابرين ضئيلة صفراء ، مسكينة لحد الموت . أفاق من دهشته .

ــ ازيك يا صابرين .

لم ترد ، امتدت بينهما أنة صامتة ، خافتة ، شبكت عيونهما نظرة حيرى تضج بالرجاء . أعاد قوله ، بصوت صادق هذه المرة :

ــ ازيك يا أختى .

منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه . بعد كل شىء ، بعد نهاية كل النهايات ، سأقتل ، أحرق . وغمرت غيطى بالعرق ما عطاشى .

سألها :

ــ عندك ايه يا صابرين .

قالت بصوت كالاسى المنسال :

ــ عندى سخونية ، ريقى ناشفة يا خويا ، أنا تعبانة يا زناتى .

الاسى يترقرق فى الكلمات ، شىء ما يفرض نفسه فى الزوايا

والاركان ، شيء غير محدود ، ولكن الزناتى يدرك ما هو . قالت امه :

ـ احنا جبنا لهـــا حبتين كنين من ابو الفتوح ، ما عملوش حاجة .

قرر ، للحظـــة ، أن يخرج ، يهرب من عينيها الضيقتين ، من نظراتها المتوسلة ، كلماتها المثقلة بالحزن ، وقف ، أتاه أنينها :

ـ أمال فين الدوا ياخويا .

الليل يقف الان على البعـــد ، بعد قليل ، يجثم على أنفـاس العزبة ، فيزيد من احساس الزناتى باليأس .

ـ معايا أهه .

قال لامه :

ـ اعملى شوية ليسـون وهاتيهم .

جلس بجوارها ، لم يتكلم ، راحت فى النوم . صوت تنفسها البطيء ، هذيانها ، كلماتها المبتورة . مضى على عودتها من ايتاى البارود اسبوعان . ولكنها منذ أول الامس ، بدأت تمرض ، مرضا لم يعرفوه من قبل ، فشلت معه كل الوصـــفات . أدهشهم فى اليومين السابقين ان يشاهدوا بأنفسهم الانسان وهو يتهـاوى ، يفقد بهاءه . أمه تشعل الوابور ، تضع عليه البراد . لا يدرى حقيقة ما سيقوم به . أنين صـــابرين يأتى اليه . حصـل على الكثيرات ، فى حقول الذرة ، وفى ليالى الحصاد بالليل ، ولكن عندما يحدث هذا لاخته صابرين ، حبة القلب ، فهذا شيء آخر . امه تحضر المشروب الساخن ، رائحته تذكره بأيام الصيام . تمثل وهو يأخذه منها أشياء جلية الى نفسه . فى الظلام فتح الزجاجة التى معه . انا الغريق فى بحار التيه . يضع قليلا منها فى الكوب الدافيء . أنا الميت الذى تؤلمه الجراح . يرج الكوب جيـدا ، يخفى الزجاجة . أنا الغريق الذى يخشى البلل . يقترب من صابرين ، يا لوداعة الحزن فى عينيها ، الاسى على رموشها الطويلة . يجلس بجوارها ، يمسكها .

ـ اشربى يا أختى دا دوا الحكيم واصفه لك .

ـ بصحيح .

تأخذ منه الكوب . دوائى موجود ، ليس هذا ، اين هو . تقرب الزجاجة من فمها . يوم أن قتل الادهم ، بالقرب من التوفيقية ،

وضعوه على جانب الطريق الزراعى ، غطوه بورقة جريدة ملوثة ، وضعوا على الورق قطعة طوب كى لا تطيرها الرياح . يقولون : لا حول ولا قوة الا بالله . تقرب الزجاجة من فمها ، تشمها . صبيحة ان وجدوا الحـــاج منصور أبو الليل مقتـولا فى قرية الضهرية ، أنهار العـــالم فى عيون أهالى الضهرية ، تفتتت كل الرؤى ، ضاعت كل الاشياء الثابتة ، فقدت نسبتها المعـــروفة ، دفنوه (ولـكنهم ، لم ينتقموا له حتى الان) . صـــابرين تغمض عينيها . هذا كلامنا يا حضرة العمدة ، فى آخر كل عام نحاسب ، ندفع ما علينا ، نقبض ما لنا ، بيتنا هناك ، فى دميسنا ، لم يبن بعد . مكانه قطعة أرض خربة ، يبول فيها العائدون الى منازلهم بعد السهر الطويل . ينعق فيها البوم ، تعشش الغربان ، تدلق فيها مياه الاستحمام فى الصباح ، كل صباح . صابرين تشرب .

— اشربى يا أختى دا دوا الحكيم واصفه لك .

يا زناتى يا خويا ، وهى تشرب . يابا ، يابا ، ليه يا امه . وهى تشرب . دا أبو الغيط ما عملهاش قال لها الدكتور ان شاء الله بالشفا يا ست الكل . وهى تشرب أخيرا يا صابرين اخيرا يا ست الكل . الليل الان يهبط فى الخارج ، السأم يتسلل فى العتمة الى كل الاشياء ، الشمس تغرب ، تتوه ، تضيع ، تغرق فى مياه الترعة الساكنة . ياما انت صفير حلو يا عريس . وهى تشرب . العائدون من حقولهم يغنون الان ،يصفقون ، يحلمون بالنوم والاكل والشاى والجوزة والمعسل والحجرات الدافئة . قلبى كان حاسس يا بنتى دا كان مكتوب على يا أمه . توكلى مين يا صـــابرين . زوجتك ابنتى وموكلتى على سمنته وعلى الصـــداق المسمى بيننا وقدره مقدمه عشرون جنيها ومؤخره . أدرك الزناتى بشـــاعة ما يقوم به عندما تصور انه لن يرى صابرين بعـد ذلك أبدا ، لن يسمع ضـحكتها الموشاة بالسرور . لن يشم وهو نائم ســاعة الفجر رائحة ملابسها الجديدة . لن تقدم له الطعام . لن تذهب الى الحقل ساعة الظهيرة . لن تذهب الى السوق يوم السبت . أدار وجهــه ، صمت ، وهى تشرب . قرصتك فى ركبتك الحقك فى جمعتك . يا لطيف يا رحمن عقبال البكارى يا صابرين . قال لها صـــفوت انت أعظم واحدة فى العالم ، كانت تغنى فى الحقول . وهبت عمـــرى للامل ولا جاشى .

آخذها الحاج هبة الله الى السراى · أنا طالب القرب منك يا شيخ الغفر فى صابرين · أمها تدفعها الى الداخل يا بنت دخلى الشاى للضيوف فى المندرة · يحمر وجهها تنسال حبات العرق على وجهها الاحمر يا أمه أنا مكسوفة تدفعها تقول لها يا بنت بلاش الكلام ده بقى انتى مكسوفة .

يجلس أمامها الزناتى ، يمضغ ألمه ، يتجرع حزنه ، يغوص ، يفوص ، يتسرب الظلام ، يفترش اركان الحجرة . ظلام هذه الليلة شائه الخلقة ، سميك . وهى تشرب .

ــ دا طعمه شين خالص ياخويا .

ناعسة لم تنتظر ايوب ، لم تبحث عنه ، احترفت الدعارة ، عاشت فى منزل مهجور ، مكان متهدم . مثل المكان الذى ورثه عبد الستار ، ولم يستطع بناءه حتى الان . ناعسة تمرغت بين الرجال ، شربت من كل الاوانى .

شعرت صابرين وهى تشرب بالحنين للحقول البعيدة ، للكلمات التى كانت تغنيها ، لقطع الظلال المتناثرة ، المتآكلة الاطراف ساعة الظهيرة ، لسعال ابو الفيط يشق صدره فى أعماق الليل . ليوم السبت من كل أسبوع ، للاتوبيس فى الصباح ، لذرات الغبار ، لنتف الضباب التى تغلف الاشياء فى لحظة الشروق ، لظلال الفسق تتسلل وسط الدار وهى تشرب . نعيمة حملت سفاحا ، عندما عاد حسن ، شاهدها من بعيد تداعب أحدهم ، تمنحه كل شىء . قتل حسن نفسه ، شرب دمه ، مضغ لحمه ، اكل عظامه . ليلة الحنة ، ليلة الحب ، ليلة مثقلة بالوعود ، بالامانى العذاب . فى ليلة الدخلة والعريس ، الف مرة . وهى تشرب . والعروسة الف مرة . والمداعى ، اجاويد دميسنا ، مركز ايتاى البارود ، محافظة البحيرة ، من اهل وادى النيل ، اهل مصر العظيمة . احنا اهل دميسنا ، هذه فلوسنا ، ننقط بالورق الاخضر . الفرح ، الفرح ، البلد ، البلد ، كل البلاد على امتداد وادى النيل ، كل العزب والنجوع والكفور والبلاد فى مصر الحرة ، مصر الحرة . وهى تشرب . وانا وانت ، وانا وانت ، على الله . دقى يا مزيكة . ست الحسن والجمال ، شاخت ، هرمت ، ابيض شعرها ، امتلأ وجهها بالاخاديد ، نضبت بشرتها ، مضغت الوهم . تعاطت

الجنون ، ولكن . الشاطر حسن لم يحضر . و ، هـ ، ى ، ت ، ش ، ر ، ب .

عقب أن أتمت الشرب ، ناولت الكوب للزناتى ، مسحت شفتيها بظاهر يدها :

الحمد لله .

ــ بالشفا ان شاء الله يا أختى .

نامت ، غطاها ببطانية ، أسبلت جفنيها . لم يطق الزناتى البقاء . حمل الزناتى الكوب معه ، خرج . ظلام هذه الليلة ظلام غير عادى . سار فى حوارى العزبة . مر على دكان ابو الفتوح . لم يلق على أحد تحية المساء . شاهد والده على راس الجسر .

سار بين الحقول ، تحسس الصمت ، داعب الظلام من حوله هبت عليه نسمة هواء ، فأكدت فى انفه رائحة الليل ، معنى السكون ، طعم الصمت . غاص فى أصوات الصمت من حوله ، نقيق الضفادع ، زقزقة الصراصير ، انين السواقى .

سمع صوتا حادا ، خدشه الصمت :

ــ يا لهوى يانا ، الحقونى يا خلق هوه .

صابرين ماتت ، استدار الزناتى ، وقف فى مكانه ، نظر الى العزبة ، تكاثفت الظلمة من حوله ، انسالت حبات عرق باردة على جبهته . اصوات اقدام تجرى هنا وهناك . الاشجار الليلة كأنها الاشباح . مجرى القناة بجواره يلمع فى الظلام مكونا شريطا ملتوية . فكر الزناتى عند سماعه الصوات أن يهرب ، أن يجرى ، ولكنه وجد نفسه يعود الى العزبة ، يقترب منها ، تزداد الاصوات حدة ، وكانت السماء مساحة من السواد والصمت .

وصل الى العزبة ، سار فى الحوارى . كان باب منزلهم مفتوحا . عدد كبير من الداخلين والخارجين . كلمات حزينة ، يضربون اكفهم فى استسلام . أسند الزناتى رأسه الى الدار المقابلة لمنزلهم . جلس القرفصاء ، وضع رأسه بين فخذيه . دارى اذنيه وجبهته بيديه . صوت ارتطام الاقدام بالارض . أمه تحكى اللحظات الاخيرة من حياة صابرين . تقول كلمات حزينة من خلال الدموع ، مصمصة الشفاه ، البسملة ، الحوقلة ، التشهد ، الصلاة على رسول الله . يطلبون لصابرين الرحمة ، الغفران .

وكل شيء فى نفس الزناتى يتداخل ، يضيع . والليل من فوق العزبة سقف من العتمة ، جدار سميك من الصمت . والصوات ، والكلمات والبكاء ، والحزن . لا يدرى الزناتى ، فى نهاية الامر ، ما يحدث حوله . وصابرين بالداخل فى المندرة ، مسبلة العينين ، صفراء ، باردة . والليـــل حزين ، حزن هرم عجـوز . والنجوم منطفئة ، والقمر مبتور الوجه ، والزناتى كما هو فى جلسته أمام باب الدار . لا حول ولا قوة الا بالله . انا لله وانا اليه راجعون .

مشهد ختامى

بداية المشــــهد :

عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، الان ، يسيطر عليها ذلك السلام الخاص ، الهادىء . سلام تلك اللحظات التى لا طعم لها البتة ، اللحظات الخريفية الشاحبة ، التى تمتد بين آخر أيام الصيف ، وتباشير الشتاء من كل عام . الســــأم يتسلل الى البيوت ، من المناور ، المساحات الفراغية فى أسطح البيوت ، الابواب الموارية . ينداح الضجر ، اللامبالاة ، الحزن ، حتى قبل أن يهبط الليل .

الناس هنا صبورون ، وهذا الصبر نوع من الخضوع للناس ، وللعالم الخارجى ، وللأشياء . هذا الصبر قريب من الكسل ، والاغراق فى الاحلام ، والانتظار بلا نشاط .

وعندما يحدث حادث بغتة ، فانه يعمل ضد هذا الحادث بدون تمييز ولا تناسب . ان الرجل يجلس ، يحــاول ان يفــكر ، وأول ما يطرأ على ذهنـــــه ، يفعله دونما تقــدير لقيمة أو ضـــخامة ما سيقوم به .

العزبة الان (بعد هذا الحــادث) . بعــد أن كانت تتثاءب على الجسر الطويل ، والحقـــول البعيدة . تفيق ، تضحك ، تبتسم ، تبكى ، تجر الحياة جرا بطيئا . تحدث أشياء كثيرة ولكنها تتكسر على جدار العزبة الخارجى ، دون أن تهزها من الاعماق ، دون ان تحفر فى نفوس الرجال أخدودا جديدا ، شعورا طارئا ، احســـاسا بكرا .

فى أيام المحنة ، سار كل شىء كما كان ، دكان ابو الفتوح كمــا هو ، ضلفة الباب مفتوحة :

ــ هات بتعريفة عسل اسود ، باكو شاى ، ربع كيلو سكر ، ع الحساب .

تنتقل النقود ، القطع الفضية اللامعة ، الاوراق الخضراء ذات الرائحـــة المحببة ، المبتلة بقطع الدسم والسمن والجاز ، المتآكلة الاطراف ، الباهتة المعالم . تنتقل من يد الى أخرى ، لكنها لاتستطيع

ان تبقى فى اليد الواحدة ، ولو للحظة ، حتى تنتقل اليها سخونة هذه اليد . تجرى بسرعة سريعة على النقيض تماما من طريقة سير الحياة هنا ، فالحياة تتسرب هادئة ، لا مبالية ، حتى دون أن يدرى أحد كيف يتم ذلك .

الشيخ عبد الفتاح يصلى بالناس ، يتحدث عن الجنة والنار ، والثواب والعقاب .

– اللهم اغفر لنـــــا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنـا مع الابرار .

الحــاج هبـــة الله المنيسى ، يخرج فى الصباح ، يجلس على الجسر ، الفتاة عندما تخرج حاملة معها صينية الشاى لا تقول : يابا عبد الستار ، تنادى أحد الواقفين ، فعبد الستار عادة لا يكون مع الواقفين . ولكن من المؤكد أن الجميع قد تحاشى ذكر الموضوع ، موضوع صابرين أمام الحاج هبة الله المنيسى ، فلهذا الموضوع أمكنة خاصة لا يناقش الا فيها . ناقشه الاصهار والاقارب فى بيوتهم ، فى الحجرات الدافئة ، وحول رشفات الشاى ، ومن خلال دخان الجوزة ، حول مناقد النار ، همست به كل امرأة الى زوجها وهما معا فى الفراش ، وعيناها مثقلتان بالرغبة ، مفروشتان بالحنين ، يدغدغ جسدها شيء ما يشدها للرجل ، يفنيها فى لحظة نادرة ، رائعة ، تعد سرا من الاسرار . لا يعلن عنها فى الصباح الا ميـاه الاستحمام ، أو بشرة ناعمة ، أو شعر مبلول ، أو ندبة حمراء فى الخد الاملس الناعم . نوقش موضوع صابرين بين الجدعان ، من خلال كلمات الراديو ، أمام دكان ابو الفتوح فى ساعة العصارى ، بين الرجال فى لحظة الكسل على المصاطب ساعة الغروب ، بين النساء وهن فى الطريق الى الترعة فى الصباح الباكر ، حكاه الانفار فى لحظة القيلولة فى مساحات الظل الصغيرة .

والناس هنا لا يحكون ما حدث ، لا يقصونه فقط ، وانما يقولونه مقرونا بالحكم الاخلاقى عليه ، يعجبون بالابطال ، يصدرون الاحكام على المخطئين .

صبيحة أن ماتت صابرين ، أحس كل فرد ان المصيبة تمسه شخصيا بشكل مباشر . ذهب سى عبده الحلاق الى دميسنا ومنها

الى نكلا العنب . عاد بعد الظهر بقليل ، ومعه تصريح دفن ، اقسم انه تعب جدا فى الحصول عليه ، وأنه لولا علاقاته ومعارفه ، لما حصل عليه بهذه السرعة . ذهب الكلاف الى دميسنا ، أحضر من هناك امرأة ، تقوم بتغسيل الموتى ، وتقوم أيضا بالولادة وبتجميل الفتيات فى الافراح ، امرأة متوسطة العمر ، وتلبس السواد دائما .

ذهب الى دميسنا اربعة شبان ، من مسجد سيدى مسعود أحضروا النعش . وعلى البعد ، بين الاشجار ، بدأ النعش يتحرك بسرعة قادما نحو العزبة ، وضعوه فى الحارة أمام باب منزل عبد الستار ، سافر احدهم الى ايتاى البارود كى يحضر الميكروفون. ذهب آخر الى نكلا العنب ، ومن هناك أرسل تلغراف الى أبى الفيط : البقية فى حياتكم ، توفيت صابرين اليوم .

فى صباح يوم الوفاة ، امتلأ وسط الدار والمندرة بالنسوة ، كلهن يلبسن السواد ، يبكين ، يصوتن (بيد ان كل واحدة تبكى على أعزائها الذين ماتوا) . أما فى الحارة ، فلقد جلس الرجال ، على المصاطب ، يلبسون ملابسهم النظيفة ، الصمت يخيم على الجميع ، يلفون سجائرهم الرفيعة ، من علب دخانهم الصدئة .

— شد حيلك يا عبد الستار ، أمال الزناتى يعمل ايه .

نجاة ، اصبحت عزبة الحاج هبة الله المنيسى مهمة ، حضر الضابط . الشرطة ، المخبرون ، انتشروا فى حواريها يدخنون المعسل ويشربون الشاى ويتسقطون الاخبار من الناس . خرج أهل العزبة من دائرة المكرور العادى . بدأ أهل العزبة يدركون ان هناك فى العالم المحيط بهم أشياء كانت علاقاتهم بها مقطوعة . بدأوا بعد قتل صابرين ، يدخلون فى علاقات جديدة مع واقعهم اليومى ، بل لقد تطورت الى مستوى لم يكن أحد يتصور وصولها اليه ، شملت نظرتهم الى الارض ، والعزبة ، والحاج هبة الله . موقفهم من أنفسهم هم كبشر ، كأفراد ، يجمع بينهم وبين الحاج انهم بشر ، آدميون . حددت موقفهم من الحياة والموت ، الامانى المرجوة، الزراعة مناصفة ، الاتحاد الاشتراكى ، العمدة ، مصر ، الحرب .

وعندما كان يلتقى اثنان من العزبة ، يقول أحدهم للآخر :

— سلامو عليكو .

يرد عليه الاخر :

ــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

بيد انهم ، بين السلامين ، أو بعد ذلك ، لا ينصرف كل منهم الى حاله . يقفون ، يتداولون الرأى ، يناقشون كل شيء ، يجمعون شمل الافكار المبعثرة ، يفكرون . لا ينصرف كل منهم الى حال سبيله ، الا وقد بدأ يشعر بشيء ما جديد يغزو تفكيره ، مذاق متفرد يعتور نفسه ، نشوه غير عادية يحس هديرها فى أعماقه .

وكانت تلك بداية كل البدايات .

عبد الستار

فجأة ، احس عبد الستار ، فى هذه الايام ، انه يموت . وذلك الاحساس لم يكن ناتجا من احساسه بالشيخوخة ، ولا لرؤيته للشعيرات البيضاء في راسه ، كلما جلس أمام المزين واعطاه مرآته الصغيرة ، كي يرى نفسه فيها ، ولا لضمور جسمه ، ولا لاتساع جلبابه عليه كلما لبسه ، ابدا . بدأ عبد الستار يحس بأنه يموت ، لمجرد شعوره الغامض بأن هناك شيئا ، نبت فجأة ، دون أن يدرى. فوجيء بوجود ابن له ، شيء يبلغ حد الروعة ، ابن مختلف عنه ، مغاير له ، صورة جديدة منه ، وجدت هكذا ، معه فى نفس المنزل . فعل ابنه كل ما عجز هو عنه فى حياته . وهكذا احدث هذا الابن فى حياة ابيه ، دونما اية مقدمات ، دونما آلام المخاض ، ولا ارهاصات الولادة ، احدث فجوة واسعة بين عبد الستار وحياته. ابنه الزناتي ، الزناتي عبد الستار ، الزناتي بوجوده ، بحياته ، بجسمه المتكامل .

شيء آخر اكد ذلك لعبد الستار ، انه كان خلال سهر الليل ، عندما كانت تنسال على جسد الليل احزانه الناعمة ، كان يتصور انه وجد هكذا ، كي يسهر على جسدها المسجى ، صابرين ، صابرين المدفونة ، فى المقابر البعيدة ، جزء عزيز غال ، تركه خلفه ، فى الناحية الاخرى من دميسنا .

بعد وفاة المرحومة ، بشهر كان عبد الستار مارا أمام دكان ابو الفتوح ، وكانت السماء خالية ، مثقلة بصفاء شاحب مر .

سمع ، وكان صوت الراديو : ان حجم الهزيمة التى منيت بهـا قواتنا المسلحة فى سـيناء . مضغ عبد الستار احسـاسا فاترا بالهوان . تماما ، كالمياه التى لم تسخن بعد ، التى كانت تعدها له زوجته ، وهى شبه عارية ، فى ليالى الشتاء الطويلة ، أيام أن كان رجلا حقيقيا .

فكر عبد الستار ، بعد الدفن والتحقيق ، فى أن يرحل عن العزبة ، ولـكن الاوان كان قـد فات . كانت تربطه بعزبة الحاج هبة الله المنيسى علاقـة ودودة ، وما كان رضـاؤه أن يقبض ثمن بكارة صابرين ، أحب الناس اليه ، الا رغبة منه فى المحافظة على حياته فى العزبة . ذلك انه فى هذه المرحلة من عمره ، لم يكن يريد أن يغامر من جديد ، فضلا عن ان الحـاج هبة الله المنيسى كان بالنسبة اليه أكثر من صاحب عزبة ، أو ولى نعمة كان أبا كبيرا غير انه ، حتى بعد أن عاد من ايتاى البارود ، بعد اجراء العملية لصابرين ، كانت هناك منطقة مشوشة من تفـكيره ، مسـاحة من الغربة القاسية فى أعماق نفسه . وكان يحاول ، فى كل مساء ، لحظة استلامه البندقية ، ان يجعل من ليلته رحلة نحـو اليقين ، الايمان المفقود ، الاقتناع بأن ما فعله فى ايتاى البارود ، كان شيئا لا يمس كرامة الانسان . ولكن من المؤكد انه لم يصل الى راحتـه المفقودة ، راحة القلب الحـزين بالوصول الى بر الامان . وظل عبد الستار غريبـا ، حزينـا ، الى أن ماتت ، فأدرك انه انتهى تماما .

أصبح يشعر كل صـباح ، وهو ينظر الى ظلال وجهه خـلال تموجات مياه الترعة التى يغسل فيهـا وجهه ، بأن شاربه قـد تساقطت شعيراته ، وبأن ذقنه لا تنبت بانتظام فى هذه الايام .

ما كان داعرا ، وما انقطع عن الصـلاة يوما واحدا من عمره ، ولا أهمل الحلال والحرام ، ولا استشعر فى لحظة واحدة من العمر الاستهانة بالجنة والنار ، والثواب والعقاب . ولكنه رغم كل هذا باعها ، كان رجلا ، رجلا حقيقيا ، ولكن العمر يتحول الى هباء ، تنسال الاحلام العذاب ، الامانى الرائعة ، ويتحول عبد الستار الى شخص لا يحترم نفسه .

ما تحقق له حلمه الغامض ، فى الرحيل عن العـزبة ، أو عن

دميسنا . غداة أن تسلم الخمسين جنيها من الحاج هبة الله ، قرر أن يشترى بها قطعة من الارض ، ولو حتى قراطين بس ، يرحل اليها ، يبنى على رأس قطعة الارض ، ساقية ، دوار ، شجرة جميز يانعة ، منزلا صغيرا ، حيث يعيد جمع الاشلاء الباقية ، يبعث حياته ، يعيش آخر أيام عمره ، يحلم ، يتمنى ، يقضى أياما مبللة بالحنين ، يعيش ليالى مثقلة بالوعود .

بعد أن تكشف له من خـــلال التحقيق ما كان يجهله ، رمى البندقية ، لم يسهر الليل ، لم يذهب الى الحقل بالنهار . أصبح غريبا حتى عن نفسه . وكل هذا أكد حقيقتين ، الاولى أنه ما أحب احدا مثل حبه لصابرين ، الثانية أنه مات ، بالفعل مات .

صـــفوت

ما كان رجلا فى لحظـة من لحظات حياته . لم يـكن ابن أبيه ، ولا حتى ابن أمه ، ولـكنه كان نبتا شيطانيا ، آذن بقدوم المغيب لاسرته . بعد سفره ، نسى صابرين ، لم يعد يذكر منها سوى لحظة النشوة الغامضة ، ذرات التبن ، همساتها ، كلماتها . ولكن كل هذا تكسر على جدار الاسكندرية الخـــارجى . فى ليالى الخريف الاسيانة ، كان يحن الى جسد صابرين ، ما زال يذكر انه لم يدفعه اليهـا سـوى أزمته التى أوصلته الى طريق مســدود . عاد من الاسكندرية ، يرجى التنبيه على صـــفوت المنيسى بالحضور فـورا لسماع أقـواله فى القضية رقم ٠٠/٦٧ ، بخصـوص .. وللأهمية القصوى ، نأمل عـدم التأخير . بعد ســماع أقواله ، بقى فى العزبة . اخبرت أمى بما حدث ، قلت لها كل شىء ، طلبت منى أن أسافر ، قالت لى انها ستسوى كل شىء . يخرج صفوت من سريره الذى غدا كالقبر ، يلبس وجهه القديم ، الذى يشبه القناع . يخرج، يضغط على ساقيه ، يحبس نبضات قلبه ، يشـــد شـعره ، يؤلم نفسه ، يدرك انه لم يمت بعد ، وانه أيضا يعيش ، يتنفس .

صفوت ، يصحو كل صـــباح ، على يوم فارغ المعنى ، مبتور الوجه ، شائه الخلقـــة ، مر المذاق . يرتدى ملابسه ، يخرج ، يحس بنفسه ، بأعماقه ، فارغة ، تافهة ، كأنها الصحراء .

يفتح صفوت جريدته الصباحية ، تتكسر نظراته على الصفحة امامه . يقرأ : انسحبت قواتنا المسلحة الى الضفة الغربية للقناة فى محاولة للتجميع والتركيز . يحس صفوت المنيسى ، بسبب موقفه هذا ، وصابرين ، والتحقيق ، والرسوب فى كل عام ، بغصه فى حلقه ، هوانا يتمدد تحت اسنانه ، حزنا ينتشر فى صدره . يتغير لون النهار امام عينيه . تموت صورة العالم فى نفسه ، يتشوه طعم المرئيات ، تنتشر المرارة فى اللعاب السائل فى فمه ، لا يستطيع أن يواصل فى نهاية الامر حياته ، يجرها خلفه جرا ..

ما نسى الهام لحظة واحدة ، لم تكن عنده اية نية فى أن يصيب صابرين بأى ضرر عندما اخذها الى مخزن التبن . ان ما كان لم يكن تحقيقا لذاته أو لرجولته ، أو اشباعا لرغبة فى نفسه ، أو حصولا على شىء حرم منه . كان ما حدث انتقاما ، انتقاما من اشياء محددة ، محفورة فى أعمق الاعماق منه .

منذ أن عاد من الاسكندرية ، ما ان يمعن النظر فى شحوب الغروب ، فتوره ، موت النهار البطىء ، تغير لون العالم ، حتى يمتلىء مرارة واسفا على صابرين . فى فراغ العزبة (حيث تأكد له هنا ، بما لا يدع مجالا للشك ، ان فى اليوم ٢٤ ساعة كاملة ، وان فى الساعة ستين دقيقة ، وفى الدقيقة ستون ثانية ، وان ساعته بطيئة . وانه فى الثانية الواحدة ، يمكنه ان يلقى تحية المساء على أحد المارين ، وأن يتمشى قليلا ، وينظر ناحية السماء ، وينفض حذاءه من ذرات التراب العالقة به ، وأيضا يفكر فى أمور عادية تافهة) .

تذكر الهام ، صحا من نومه فى لحظة الفجرية ، وكانت النجمة أم ديل تقف فوق العزبة . كتب الى الهام ، والليل ساكن سكون الموت ، رسالة مبللة بالدموع ، كتبها بذوب نفسه ، خفق فؤاده ، حرارة دمه . ولكنه فى اليوم التالى لم يرسلها ، مزقها ، القى بمزق الورق الصغيرة فى مياه الترعة الساكنة ، فى فتور وكسل . وفى كل ليلة ، فى منتصف لياليه السود ، يسود الصفحات ، احبك يا الهام ، اعبدك . فى الصباح ، يصحو على قسوة الواقع ، يدخل معه فى علاقة شديدة الغرابة ، علاقة يحكمها القهر والحزن . سأله

حقق : س : ما اسمك ، ســـنك ، عنوانك ، عملك . دفع له الده كفالة مالية ، ارسل معه اشهر محامى فى محافظة البحيرة . سمى صفوت هبة الله المنيسى ، طالب ، عمرى ، لم احب سوى هام ، يا دوب الحب . بالتأكيد ، لم يكن شيئا جديدا لاسرته ، لكنه فى اللحظة التى تأكد له فيهـــا انه لن يكون شيئا بالنسبة سرته ، لم يستطع فى نفس الوقت أن يكون اى شىء آخر ، سوى لك ..

صـــابرين

لم تكن سوى نفسها .

ما اخذت منه مليما واحدا ، ما طمعت فيه ، لم تأخذ منه سوى منديل أبيض مثقل بعطـــر فواح ، يذكرها به كلما أخرجته من سحارتها كى تشم رائحته ، وتضمه للقلب ، ما تصورت ولو للحظة واحدة انها من الممكن ان تتزوجه . كان زواجهـا من أبى الغيط ، رغم انها لم تشعر به قط ، أمانا لها .

ضل راجل ولا ضل حيطة .

لم تنبثق الرغبة فى السقوط من أعماقهـــا ، بل هى حائرة ، لا تدرى كيف تم هذا . لقد تصورت ، بعد أن تم كل شىء ، ان الذنب ليس ذنبهـا ، وأنها مظلومة . ولكن ذلك اليقين لم يستمر معهـا طويلا ، ففى لحظات نادرة ، لحظات مواجهة الذات ، كثيرا ما شدت شعرها ، لطمت خدودها ، تمرغت فى الوحل بين أقراص الجلة ، لاعنة نفسها ، ولكنها لم تلعن صفوت المنيسى مرة واحدة .

ـ دا مكتوبى يا امه ، أعمل ايه .

يرحمها الله .

ـ يبشبش الطوبة اللى تحت راسها .

صابرين فتاة صغيرة ، حلوة . فاضت عواطفها لدرجة الالم . فتاة ، أنثى ، بكل قطعة من لحمها الطـــرى ، بكل قطرة من دمها الحار الدافىء . لقد ناضلت نفســـها كثيرا ، تجلدت ، وظلت تناضل وتقاوم ، رغم ارتضائها السقوط ، كانت تذوب شوقا اليه ،

صفوت المنيسي ، وفى نفس الوقت ، كادت تموت من الخوف الذى يلاحقها كظلها . ضرعت اليه :

ـ انت عايز تعمل ايه .

توسلت ، قالت بكلمات باكية :

ـ حرام عليك ، يستر عرضك ، ابعد عنى ، أنا غلبانة .

ضرعت اليه أن يصونها ، ألا يلوث شرفها . انها تدرك انها عاجزة حتى عن حماية نفسها ، ما وقع قد وقع ، كان صفوت أقوى منها . تم كل شيء ، أمر كالموت ، كالقضاء ، كالقدر . ورغم ما حدث ، ما أحبت سواه . بعد لقاء المخزن ، تحول عنها ، نبشت فى عينيه ، بين شفتيه ، فى ملامح وجهه ، بحثت عن الغرام القديم . ولكنه غدا شخصا آخر . كانت تلمع حرارة فؤادها فى عينيها .

لا يمكن أن يقال انه ان لم يكن صفوت المنيسي ، لكان سواه من شباب العزبة ، لا يمكن أن يقال هذا قط ، فلقد كان صفوت المنيسي ، صفوت دون سواه ، هو قضاؤها المحتوم . ليست صابرين ضحية لظروف خاصة ، مادية أو اجتماعية ، كما انها ليست ساقطة . ذلك انها حتى قبل أن تذهب الى ايتاى البارود ، كانت ذاهلة عن نفسها ، عن تصور لحظة التسليم والرضوخ فى مخزن التبن .

مرة أخرى ، يرحمها الله ، ذهبت ، كلمة تائهة فى ضمير الغيب .

ابو الغيط

عندما عاد من جناكليس ، ذهب من فوره الى منزل عبد الستار ، وقف على بعد واضح ، كما يفعل الغرباء ، صفق بيديه :

ـ ياللى هنا .

برزت ستهم من الداخل ، وكان الوقت أصيلا ، فوجئت بأبى الغيط ، للحظة ، ربما أقل من ذلك ، ظلت تحدق فيه غير مصدقة أن أبا الغيط قد وصل من جناكليس . لم تدرك ما يجب القيام به فى مثل هذه الظروف ، اقترب منها ، فجأة ، لا يدرى كيف تم

ذلك ، ارتمت ستهم فى أحضانه ، بكت ، قالت من خلال دموع مالحة الطعم :

ـ صابرين ماتت يا ابو الفيط .

ماتت ، مدفونة هنـــاك ، فى التراب ، بعـد قليل ، خرج ابو الفيط ، ذاهلا ، شاردا ، ذهب الى دميسنا . فى طريقه ، وهو علي الجسر ، وقف قبالة سراى الحاج هبة الله المنيسى ، وضع يده خلف ظهره ، تراجع الى الخلف ثلاث خطوات ، أصبح على شاطىء الترعة ، ظلاله تتماوج فى المياه ، تطول ، تقصر ، تنثنى فى ليونة ، صاح بأعلى صوته :

ـ لكو يوم يا عيلة المنيسى .

تجمع الناس حوله :

ـ فيه ايه يا ابو الفيط .

صاح ابو الفيط :

ـ انا يومكم الاسود يا عيلة المنيسى .

عندما عاد من دميسنا ، ما زال الكل يذكر هذا جيدا ، كان قد أصابه شيء ما ، مس ، هلوسة ، قال للناس . على رأس الجسر وأمام دكان ابو الفتوح ، انه قابل أباه فى جناكليس ، تعرف عليه ، هتف من أعماق القلب المجروح ، اهلا . قال انه جلس مع سامح افندى المنيسى .

ـ انتو مش فاكرينه واللا ايه .

قال لهم ، ان ســامح المنيسى اصبح ملكا على مملكة واسـعة الارجاء ، اسمه هنالك : جلالة الملك دياوتللو العظيم ، سامح بك المنيسى . قال ايضا ، ان صابرين ، زوجته على سنة الله ورسوله والمؤمنين ، والمكتوب كتابه عليها منذ سنوات ، حملت منه هو ، طار اليها ذات ليلة قمرية رائعة ، ضاجعها فوق السطوح ، دهش من كل ما يقال عنها . قال انها هناك ، عند والده ، وانه انجب منها فى ليلة الوصال ، وريث العرش لمملكة المنيسى . عندما مثل أمام وكيل النيابة (وكان قد أرسل فى طلبه لسماع أقواله فى قضية مقتل صابرين) . اسمك ، سنك ، عملك ، عنوانك . انا ابو الفيط المنيسى ، ابن جلالة الملك المعظم ، سامح المنيسى ، صاحب العزبة ، زوجتى صابرين ، حملتهـا معى وطرت الى جناكليس . صابرين

تسلم عليكم . جناب الملك ، دياوتللو العظيم ، يرسل لكم ، الى أهالى دميسنا ، فى الحقول ، المزارع ، على مدارات السواقى ، على الجسر العريض ، فى مكتب الباشكاتب ، أمام التندة ، فى المصلى ، أمام دكان أبو الفتوح ، على المصاطب ، فى القاعات الدافئة ، فى الجرن خلف سراى الحاج هبة الله ، تحت برج الحمام ، حول لعبة السيجة . بلغ كل فرد منهم ، سلاما شخصيا مع قبلة طويلة حارة على خده الايمن . قل لهم أيضا ، وليكن ذلك ساعة الفروب الشجية من يوم السبت ، ان صابرين حامل ، وستلد قريبا ، ستلد ولى العرش . واننا سنحضر ذات يوم ، نفتح العزبة ، بجيش الخلاص لاستردادها ، تحريرها .

ذات صباح ، قل لهم أيضا ، اننا امرنا بعدم تعذيب الحمير وقتل الكلاب ، وعدم دفن الذباب فى الطين . فى الصباح ، بحثوا عنه لم يجدوه ، أبدا ، لم يجدوه . ولكن أخباره كانت تصل اليهم بانتظام . مسافر فى الزمان أبدا ، كلماته مبللة بالوجد ، موشاة بالحب للحبيب الكبير . عاشت العزبة على أخباره ، وأخبار مملكته ، ولكن من المؤكد ، انهم لم يروه بعد ذلك ابدا .

الزناتى

كان رجلا ، أراح واستراح .

لم يرث من والده صفات الجسم والروح فحسب ، بل لقد جاء الى الدنيا ، وفى داخله ، ذلك الايمان الفطرى ، حب الارض ، طريقة معينة ، ساذجة بسيطة مسطحة فى معرفة العالم الذى يحيط به . لا يشعر فى أعماقه بأنه قد ظلم صابرين ، كما انه لا يتصور للحظة واحدة ، انه اداة عدل على الارض . فى يوم المحاكمة ، صاح الحاجب ، محكمة . صمت مهيب جلل ، المتهم فى القضية رقم ٠٠٠/٦٧ ، دعوى قتل ، المتهم فيها . بعد النطق بالحكم ، أصبح العالم المحيط به ، ارضا رمادية ممتدة الى ما لا نهاية ، لا نهار فيها ولا ليل . فى أيام التحقيق حاصروه بالاسئلة ، احتجز فى المركز . بعد التحقيق ، أفرجوا عن والده ، بعد أيام افرجوا عنه بكفالة ، وعاد الى العزبة . أيام الفراغ ، الضجر المالح الطعم ،

اللامبالاة التى لها مرارة حبات الشب البيضاء ، لم يذهب الى الحقل مرة واحدة . فى الصباح الباكر ، والشمس ما زالت حمراء ، يخرج ، ينام على ظهره ، على أكوام السماد الطرية ، تنبعث منها رائحة قريبة من رائحة الخصوبة والارض المروية حديثا ، ورائحة العفن . يرمى قطع الطوب فى مياه الترعة الهادئة ، يواصل بحثه الفارغ عن أى شىء .

س : ما هو سبب ذهابك الى مكتب الباشكاتب واحضارك التوكسافين ظهر يوم الوفاة ؟

لا يرد .

س : كل الادلة تجمع على انك القاتل الفعلى لصابرين ، فما قولك ؟ .

فى لحظات ، لم يصدق انه قتل صابرين ، وانها ماتت ، ومع مرور الوقت ، مع تسرب لحظات القلق والفتور والإستسلام ، فقد الالفة القديمة بينه وبين العزبة ، تقطعت علاقته القديمة بالحقل والعزبة والحوارى . أضحت كل لحظات العمر بالنسبة اليه نزيفا مستمرا ، معاناة من نوع جديد .

يا سيدى يا رسول الله من لى سواك . يا أدهم ، يا ابن بلدتنا ، انت الامل والخلاص ، انت حلم الجبناء . فى شىء جديد . تبقر بطنى فى مخزن التبن ، تقطع أوصالى على مدخل دميسنا ، يشرب دمى قطرة ، قطرة ، فى ساحة المركز فى ايتاى البارود ، أموت ، اقتل ، أعلق من رأسى فى دكر النخل عند مقابرنا فى دميسنا . تأكلنى الغربان ، قطعة ، قطعة .

وخلال أيام العذاب المستمر ، يا أبو الفيط من لى بك ، أود أن أذهب الى مملكتك ، هل صابرين هناك فعلا ؟ هل هى حامل من ابى الفيط ، وريث العرش ، ربنا يعطيك طول العمر يا والدى . صابرين ، ابنتك ، أختى ، حامل ، هناك فى المملكة ، حامل من أبى الغيط .

ما تصور الزناتى انه كان عادلا بقتله لصابرين ، وتحمل بعد ذلك من الالم والحزن والمرارة ، ما ينوء به كاهل رجال حقيقيين . انها الا تحقيقا لفكرة غائمة فى زاوية معتمة من خياله ، وتصور مشوش فى ذهنه لفكرة الشرف .

منذ أن ماتت صابرين ، أصبح يفسل بضباب كل صباح ، دموع واحزان ليلة الامس ، ليالي السهاد والرحيل والاحزان ، احزان السفر فى الليل ، والبحث عن راحة اليقين . حاول الزناتى ، بكل جهده ، أن يعيد لوجهه رواءه القديم ، أن يبعث في نفسه البكارة الرطبة الندية الاولى ، غير انه تأكد له ، أن نجوم السماء ، اقرب اليه من ذلك .

خ ، ت ، ١ ، م المشهد

قد تشرق مئات الشموس ، تسطع آلاف الاقمار ، يتلون لون النهار بكل الالوان ، تولد الاصباح الندية على صفحة الليل ، تثقب الظلام ، تخدش الصمت ، يذوب النهار الاشهب ، الحلو ، فى الليل الاسود ، يغطى الليل البيوت والحارات . ولكن كل هذا لن يفعل للعزبة ، ولاهل العزبة أى شىء ما . فمهما حدث للعزبة ، عزبة الحاج هبة الله المنيسى ، فسيظل ، ولسنوات طوال قادمة ، معجزة هذه العزبة ، هى أن تخلق فى أعماق القلوب ، ذلك الجبل المعتم الذى تسيل منه الاحلام ، كأنها مياه الينابيع .

قد يموت أحدهم ، يحدث له حادث مؤسف ، تحل بالوطن المحن والمصائب ، لدرجة أن يهمس كل منهم لنفسه ، قبل النوم ، أو بعد الصحو مباشرة ، أو وهو يتمدد حزينا فى أحضان زوجته الطرية ، يهمس لنفسه : سأبكى هذه المرة من غير شك .

وتمر الايام ، بطيئة ، بطيئة ، وينضب القلب ، لا يستطيع حتى أن يبكى . ولكن العزبة تواصل تنفسها ببطء . وفى كل صباح ، رغم كل ما يمر بالعزبة ، يحس كل فرد فيها ، انه فى ذلك الصباح ، قد ولد مخلوقا جديدا ، انه يكتسب معنى جديدا لمشاهد بالغة القدم .

ماتت صابرين ، سجن الزناتى ، والنهر هنا لا ينام الا باحدى مقلتيه ، يرقد تحت الحشائش الخضراء ، يخبو القمر ، كما تخبو شعلة شاحبة وسط ضباب كثيف ، ومن منا ، لم يعرف تلك الآمال الواهنة ، الرغبات الغامضة ، ذلك الصمت الذى يزداد خطرا من دقيقة لاخرى ، كأنه مرض قتال .

الناس هنا ، حتى وهم فى قلب الخطـــر ، يحتفظون بهمومهم كأفراد من البشر ، جزئيات حياتهم البالفة أقصى درجات الصغر ، ثرثرة واقعهم اليومية التافهة . ومهما حدث ، سيظل لعزبة الحاج هبة الله المنيسي ، تلك الاشياء الخاصة ، صوت تنفس الاطفال من القاعات الضيقة فى ليالى الشتاء الطـــويلة وهم نيام ، صوت اصطدام الملاعق الالمونيوم الرخيصة بالاوانى الفارغة يوم السوق وفى ليالى المواسم والاعياد ، صوت طشيش التقلية ، فى لحظة الغروب ، رائحة السمن المحـــروق ، والبصل المقلى ، قطرات الدموع على الخدود الوردية ، رائحـــة الدخان الخارجة من النوافذ الضيقة ، والابواب المواربة ، المناور ، الطاقات ، فى ليالى الشتاء الباردة ، صوت الرجال فى أعماق الليل ، قطرات الظـــلام كأنها الدموع . يجتمع الرجال ، يحكون ، يجمعون شمل الذكريات القـــديمة ، يقولون ، يسافرون فى الزمان ، يحلمون بأرض جديدة ، والقمر منطفىء ، والنجوم في السماء مبعثرة ، والحزن فى أركان الدنيا الاربعة ، الاسى يترقرق فى المآقي ، الدموع تسبح فى الاعماق ، الحكايا فى الليل الطويل ، على المصاطب أمام دكان أبو الفتوح ، على رأس الجسر ، فى المصلى عند الشيخ عبد الفتاح .

ولكن الامور ، فى النهـــاية ، ربما نهاية كل النهـــايات ، قد تتعدل ، يسير كل شيء فى مجراه الطبيعي .

الايام تمر .

الناس يجتمعون مرة أخرى ، يجلسون فى حلقات ، مساحات الصمت في حديثهم أكثر من الكلمات . أصواتهم ، وحشرجاتهم فى كل كلمة ، تكشف عن الصمت الذى يتسلل بين الكلمات .

يغنون فى الحقول الواسعة ، ولكن غناءهم لن يكون سوى آهة ، تنبثق من الفضاء الحقولى ، من الصمت المفعم ، تنبثق من العدم ، ثم فى العدم تغوص مرة أخرى .

وبعد أيام الصمت والدهشـــــة والذهول التى أعقبت الحـــادث مباشرة ، بعد الهدوء الاملس الذى ران على الاشياء .

مرت أيام .

وبدا كل أجل هنا ، ينحت من خلال ضراوة واقعه ، وجهـــامة

أيامه ، وصمت لياليه ،شيئا جديدا ، واقعـــا مغايرا ، يقابل به جزئيات حياته اليومية ، مقابلة تامة .

ـ طيب وايه العمل ؟

سؤال طرح في كل الامكنة ، بتحديد أكثر ، طرح في كل مكان اجتمع فيه أكثر من رجلين ، طرح بلا خوف ، في طراوة العصارى ، أو مع قدوم الليل .

ـ طيب وايه العمل ؟

قاله كل رجل لزوجته ، وهما يشمان معا ، رائحة الدفء في الحجرات الضيقة . وهمس به الشبان لانفسهم ، في لحظة المساء الشجية ، أمام دكان أبو الفتوح . بسطة الشيوخ في المصلى أمام مولاهم . القى به الرجال ، أمام ظلمـــة الليل ، وصمت السماء ، وسكون النجوم الليلية البراقة .

ـ طيب وايه العمل ؟

قالوه ، وهم يمدون أياديهم المجـــذوذة الاصابع ، وهم يفردون اكفهم المثقلة بالشقوق الطولية . وهم يرفعون أياديهم نحو السماء ، فتبدوا الشعيرات السوداء تملأ أذرعهم .

ولو شـــاهدت أحدهم الان ، تجده وقد جلس في مكان ما ، وانفرد بنفسه ، واضعا يده على خده .

ـ أيوه يا سيدى .

محاولا أن يستغرق في تفكير عميق ، باحثا عن اسم متعارف عليه لما يعتمل في ذهنه من أفكار ، أن يحول الصور الضبابية في خياله الى كلمات منطوقة .

والناس هنا مختلفون بطبيعة الحال ، غير ان الموضوع الذى كان يشغلهم ، كان موضوعا واحدا . لم يكن قتل صابرين . كان موضوعا آخر ، الارض ، البيوت ، حياة كل فرد منهم ، وجوده ، زوجتـــه ، وأولاده ، تعـــاملهم مع بعضهم البعض ، علاقاتهم بالباشكاتب ، موقفهم من الحاج هبة الله المنيسى والعزبة .

ولكن من المؤكد ، ان كل رجـل سيهمس لنفسه ، وهو يدرك

حقيقة ما يحدث ، وهو يتحسس معانى الاشياء ويلوكها فى ذهنه ، وهو يشم رائحة الخصوبة والارض والشجر والماء .

سيهمس لنفسه ، وقطرات الظلام ، فى لحظة المساء ، تغلف العزبة ، فتخفى حقائق الاشياء . ومساحات الظلام ، فى أعماق الليل ، وكتل الصمت الليلى ، تضفى على العزبة شكلا أبديا :

قد يكون الغد ، الصباح الباكر ، افضل من اليوم ، من غير شك .

« تمت »